٢٦٠

HARLEQUIN

روايات احلام

غجرية بلا مرفأ

رينيه روزيل

www.elromancia.com

مرمورية

غجرية بلا مرفأ

كان الطبيب مارك ميريت يريد ممرضةً تساعده... لا حورية بحر، ولا غجرية مجنونة... فما الحكمة في أن يرمي له البحر بحورية خرقاء طائشة اسمها ميمي باتيست؟

لم تجهل ميمي رأيه بها. وتساءلت بكآبة هل تريد حقاً البقاء بين أسوار هذه الجزيرة التافهة أسبوعين تعمل لحساب رجل نكد؟

صحيح أنه وسيم للغاية، ولكنه بغيض حقاً! وقضاء اسبوعين معه يفوق طاقة كل إنسان عاقل. ولكن ما العمل وليس أمامها خيار آخر؟

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.
سوريا: ٧٥ ل.س.
الأردن: ١,٥ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الإمارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ ريال

البحرين: ١ دينار
السعودية: ١٠ ريال
مصر: ٦ جنيه
المغرب: ١٥ درهم
تونس: ٢ دينار
عُمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-097-4

١ ـ فاتنة الضباب

انسلّ الضباب بخفةٍ حتى خيّم على سطح المحيط الأطلسي بكامله، لكنّ ذلك لم يزعجه البتة. فهو يهوى سكون الضباب، ويحب أن ينعزل بنفسه، بعد أيامٍ طويلةٍ يقضيها في معاينة مرضاه.

ستة أشهرٍ مرّت على مزاولته الطبّ، وتسلّمه زبائنَ الدكتور فليت، فحفظ مارك المعابر بين جزيرة ميريت والجزر الصخرية المتناثرة حولها عن ظهر قلب. لهذا، لم يستأ حين تعطل جهاز الرادار في وقتٍ سابقٍ من عصر هذا اليوم.

تنشق مارك هواء البحر الرطب ملء رئتيه، ثم ابتسم. كان اللّيل قد أرخى عليه ستاره، والسكون سيطر على المكان، لا يعكّره إلا هديرٌ خفيفٌ لمحرّك المركب العائد أدراجه إلى المرسى. بدا له المحيط هادئاً، وأحسّ أن الحياة تبتسم له، إلا أن ابتسامتها لم تُزل شعوراً بسيطاً بالوحدة في قلبه.

كانت الغيمة الوحيدة التي تعكّر صفو سمائه المشرقة في جزيرة ميريت هي افتقاره لامرأةٍ مؤهلةٍ في عملها. كانت أورسولا، آخر ممرضةٍ عملت في عيادته، تتمتع بقدرٍ من الجاذبية، وقد بدت متحمسةً لإضفاء بعدٍ آخر على علاقتهما المهنية. ولكنها مُنيت بالخيبة حين لم يُرحب مارك بهذه العلاقة. وكانت النتيجة أن استقالت. بكل بساطةٍ، رحلت في طرفة عين!

وبما أنه لم يوظف بعد أيّ مساعدةٍ جديدة، فقد بات يجهد نفسه في العمل. ولكن، أليست هذه حال طبيب كلّ بلدةٍ؟ وما لبث أن سلك منعطفاً صغيراً وهو يركن إلى حاسته، لا إلى بصره، في سبيل الاهتداء إلى وجهته.

في صباح هذا اليوم، نشر اعلاناً في مجلاّتٍ طبيةٍ محلية عدة، يطلب فيه ممرّضة. ولم يغفل عن ذكر راتبٍ خياليّ عرف أنه سيجذب مساعدةً جديدة في غضون أسابيع. وسرعان ما أجفل وهو يفكّر في أسبوعين أو ثلاثة لا يلقى فيها أيّ مساعدةٍ، ثم تنهد بسأم.

وفجأة، أحسّ بشيءٍ يرتطم بمركبه ارتطاماً مدوياً، انتشل مارك من أفكاره الحائرة، فأفلتت منه شتيمةٌ، وأضاء المصابيح، ثم وثب من مكانه، ليكتشف أيّ أخرقٍ اصطدم به.

ما إن انتقل إلى الجانب المتضرّر حتّى حملق بالضّباب الذي اخترقته أنوار المركب. لم يكن من الصعب عليه أن يميّز زورقاً صغيراً. لاحظ أن المجاذيف تحطّمت على جانب سفينته. وأنّ طبقة الطلاء اللّماع أتلفت.

كتم مارك شتيمةً أخرى. وسرعان ما لمح من زاوية عينيه شخصاً ينهض ببطءٍ، وهو يحاول أن يستند إلى الصّاري، عساه يستعيد توازنه. علت تقطيبةٌ عميقة جبين مارك حين أدرك أن الشّخص الّذي تسبب بهذه الضربة العنيفة ما هو إلا شقراء صغيرةٌ. ترى، ماذا تفعل هنا وحيدةً في الضباب؟.

بعدما ألقت المرأة نظرةً سريعةً مرتاعة على هيكل زورقها، أطلقت عويلاً وقبضت بيدها على شعرها المسترسل.

ـ آه، لا!.

وما لبثت أن حوّلت نظرها إلى مارك، تحدّق فيه وهي تشير باصبعها إلى مقدمة المركب المتضررة:

ـ أنظر إلى ما فعلته بمركبي!.

فرمقها مارك بمزيجٍ من الغضب وعدم التصديق: «يا لطيشي! لقد جنحت بمركبي متعمداً لأصطدم بمقدمة قاربك».

بدت في ملاحظته نبرة سخريةٍ لا لبس فيها، ثم أضاف: «حاولي أن تسامحيني».

مرّرت يداً مرتجفةً في شعرها، وقد تملكها هيجانٌ واضح، وقالت: «لكنه... لكنه ليس حتّى بقاربي!».

ـ وهل أفترض أنك كنت تمرّين بالجوار حين سمعت الارتطام، وقرّرت تقصّي الأمر؟

فحوّلت نظرتها عن المركب المتضرر وسدّدتها إلى وجهه، قبل أن تصرخ: «لا أنفي أنني أقدّر الهجاء اللاذع، لكنه ليس مفيداً في الوقت الحالي!».

ثم كشفت عن تعابير حزينة وهزّت برأسها: «ما العمل؟ لا يمكن أن أبحر بهذا الحطام حتّى الشاطىء! سيغرق بالتأكيد».

فأجابها مارك: «أشك في ذلك. كلّ ما في الأمر أنك لن تستطيعي قيادته».

فجأةً، بدأ سائلٌ قاتمٌ ينزّ من جبينها، مما أثار قلقه، فأشار إلى البقعة على وجهها وقال: «إنك تنزفين، لا بد أن رأسك أصيب».

ـ بالطبع أصيب رأسي! فقد تعرضت لحادثٍ!.

ثم لامست قطرات الدم وكشّرت للّون الأحمر على أناملها، قبل أن تضيف: «هذا ما كان ينقصني!».

ـ من الأفضل أن أفحصه.

سحب حبلاً، وقد عرف أنه لا يملك خياراً إلاّ أن يربط زورقها بمركبه. فمن المحال أن يترك امرأةً جريحة، لا بل تعاني ارتجاجاً في المخ، وحدها، في الضباب، على متن مركبٍ محطم.

لكنها نادته: «لا تقلق بشأني يا سيد. بمقدوري الاعتناء بنفسي».

بعد أن ثبّت الحبل، تسلّق المركب بجهدٍ وهو يحاول أن يصل إليها. فسألته: «ماذا تفعل؟».

ـ قادمٌ لأفحص الرأس المصاب.
ـ لا داعي، لقد تحطم كلياً.
فقال وهو يحاول أن يحافظ على رباطة جأشه، فالمرأة لا شك مشوشة: «لا أقصد رأس المركب بل رأسك أنت».
ـ قلت لك، بمقدوري...
فقاطعها: «سمعتك».
ثمّ حاول أن يصل إلى الشراع علّه يربط الحبل بوتدٍ ما. وبعدما عقده، واجهها قائلاً: «اثبتي مكانك فيما أفحص جرحك».
فأجابته بعبوس: «أنت حقاً قبطانٌ رائع... وماذا تفعل أيضاً؟ هل تُزوّج الناس في عرض البحر؟».
حاول جاهداً السيطرة على أعصابه، ثم أشار إلى سطحٍ يغطيه قماشٌ من القنب.
ـ اجلسي بينما أعاينك.
ـ من تظن نفسك لتصدر الأوامر؟
ـ أنا الرجل الذي صدمتِ مركبه.
ثم شدّ على كتفيها وأردف: «اجلسي».
ـ حسنٌ. ولكنني لن أجلس إلا لأنني أشعر بقليلٍ من التعب.
ونفذّت أوامره، رغم الممانعة الجلية التي أبدتها. أما هو، فأحسّ بنبرة صوتها يشوبها الارتجاف.
ـ تقصدين الدّوار، أليس كذلك؟
ردّت: «كلاّ، بل قصدت التعب. فمنذ مدةٍ وأنا هائمةٌ على وجهي، وقد أضاعني الضباب عن وجهتي».
ـ ومن الممكن أن تفقدي الوعي في غضون دقائق، في حال أصبتِ بارتجاج في المخ.
وركع بجانبها، وأزاح بضع خصلاتٍ من شعرها ليفحص إصابتها. لكنّه

لم يغفل عن لون شعرها، فالخبير مثله يدرك أن هذا اللون الأشقر الذهبي نعمةٌ أغدقتها عليها الطبيعة، ويقدّر جمال خصلاته الكثيفة الناعمة. وسرعان ما عاد إلى رشده وهو يهزّ برأسه ويذكّر نفسه: أنت طبيبٌ يا رجل! هيّا، مارس مهنتك!
أما هي، فردت بضحكةٍ ساخرةٍ قصيرة: «ارتجاج في المخ؟ من جرّاء هذا الورم البسيط؟ صدّقني، لقد أصبتُ بارتجاجاتٍ أعنف خلال اعتماري قبعةً من القش».
لم يستطع مارك أن يكتم ابتسامةً صغيرة افترّت عن ثغره. الحقّ يقال، لهذه الوقحة جرأةٌ واضحة.
ـ حين كنت في مخيّم في استراليا، اضطررت إلى تجبير ساقي المكسورة مرةً، وقد نجحت في ذلك باستخدام بضعة أغصانٍ وحزامٍ لا غير. كما ترى إذاً أستطيع الاعتناء بنفسي.
لمّا سمع رواية ساقها المكسورة، تفاجأ وقدّر أنها إمّا تهذي وإما تتمتّع بموهبةٍ في رواية القصص. سألها: «إنك واسعة الحيلة حقاً. أخبريني، كيف تعالجين نفسك إن وقعت في غيبوبةٍ مثلاً؟».
ـ ولكنني قلت لك إن هذا الجرح بسيطٌ جداً!.
ـ أنت تحتاجين إلى قطبه يا آنسة...
في هذه اللحظة بالذات، تلاقت عيونهما. وكان ذلك كافياً ليلاحظ حدقتيها المتسعتين، وذلك اللون الفضّي الرمادي الذي يؤثر في النفس أيّما تأثير. ولحسن الحظّ، لم يلحظ فيهما أي علامةٍ على ارتجاج في المخ.
تمتمت بصوتٍ أقل جرأة: «باتيست، ميمي باتيست».
ـ حسناً يا آنسة باتيست، ما مدى براعتك في تقطيب جرحك؟.
فجأة، أجفلت وضاقت العينان في آنٍ، فسألها:
ـ هل آذيتك؟.

ثم سارع يبحث في جيبه عن منديله المطوي، فيما تمتمت: «نعم، عندما اعترضت طريق مركبي، ليس إلاّ».

ضغط على جرحها بالمنديل النظيف. وحين التقت النظرات مجدداً، وجّه إلى الآنسة بابتيست، صاحبة العينين الرماديتين الفاتنتين، إحدى أقسى عباراته المهنية: «امسكي هذا، فيما أنقلك إلى قاربي».

فحدّقت فيه: «ماذا؟».

هزّ رأسه وهو ينظر إليها، ثم أجابها: «ألا تذكرين أنك تحتاجين إلى القطب؟ ليس باستطاعتي أن أداوي جرحك هنا».

وجّهت إليه رداً حاسماً سريعاً: «بالتأكيد لا يمكنك ذلك يا هذا! فليس من عادتي أن أترك الغرباء يغرزون الإبر في رأسي».

ولكنه أمسكها من ذراعها، ثم وقف وهو يرفعها على قدميها: «أيمكنك السير؟».

إلا أنها ظلّت على عنادها وأجابته: «لن أسير إلى أي مكانٍ معك!».

لم يكن هذا العناد من القوة بحيث يحرّرها من قبضته.

راح يجرّها على طول خشبة المركب. ولما انحنى تحت ثقلها، أخذ يحثّها على المسير:

ـ إذا لم نسرع، فسيُمنى كلانا بحمّامٍ مالحٍ. أمسكي هذا الجانب، وسأرفعك.

حدجته بنظرةٍ هي أبعد ما يكون عن الرغبة في التعاون: «أنا لا أعرفك يا أخي! إن كنت تظن أنني سأصعد إلى هذا المركب معك، فأنت أكثر جنوناً مما يبدو عليك».

هنا، أمسك بالحافة العليا من القارب ليحافظ على توازنهما، قبل أن يواجهها:

ـ اسمي مارك ميريت وأعيش على جزيرةٍ غير بعيدةٍ من هنا، وأنا

طبيب.

أحنى رأسه بتحيةٍ مشوبةٍ بسخريةٍ طفيفة، وأضاف: «كيف حالك؟ والآن، تمسكي بالحافة اللعينة واصعدي إلى قاربي قبل أن أفقد رباطة جأشي، وألقي بك إلى الجانب الآخر كأيّ صخرة».

ـ أريد أن أرى بطاقتك.

فحملق فيها غير مصدقٍ: «ماذا تريدين؟».

ـ بطاقتك أيها الرجل القوي. بإمكان أي إنسانٍ أن يدّعي أنه طبيب. أيّ قاتلٍ يستطيع الادعاء بذلك.

ـ فعلاً. يمكن للقاتل أن يكون طبيباً.

انتزع محفظته من جيبه، وفتحها بعنفٍ، ليظهر لها البطاقة التي تثبت عضويته في الاتحاد الطبي الأميركي، وتابع: «أما البطاقة التي تثبت أني قاتلٌ، فما زالت قيد الطبع».

منحت البطاقة نظرةً متمعنة، ثم مدّت يدها لتقلّب بقية الأوراق، حتى وجدت رخصة سوقه. بقيت لدقيقةٍ طويلة تحدّق بتقطيبٍ في الكلمات التالية: ماركوس ج. ميريت، طبيب. أخيراً، سألها بتملق:

ـ ما رأيك؟.

وجهت إليه نظرة جانبية سريعة، ثم فتحت فمها وكأنها تفكّر في حجةٍ أقوى. وما لبثت أن تذمرت: «حسناً، أنت طبيب، ولكنّ الأطباء، كما قلت، قد يكونون قتلة».

أغلق مارك محفظته، ثم أعادها إلى جيبه وأجاب: «ولكن فرصة مصادفة طبيبٍ تهمه رعايتك تفوق، إحصائياً، بأكثر من النصف، فرصة مصادفة طبيب يودّ أن يقطعك إرباً إرباً».

ـ كم هذا رائع!

ثم عضت على شفتها السفلى وعيناها لا تفارقانه. وأحسّ مارك أنها تحدد خياراتها.

وأخيراً تمتمت: «لا أحبذ الأمر، ولكن أظن أن ما بيدي حيلة».

اتكأت إلى الحافة وهي تنقل رجلها، ولكنها عجزت عن أن تثبتها. فهرع مارك إليها، وأمسكها من خصرها، ثم حملها قليلاً حتى تمكّنت من تثبيت رجليها. وما لبث أن أمسك بالحافة بدوره كي يتجنب السقوط في المحيط.

ما إن أصبحت ميمي على متن المركب، حتى استقامت واستعادت توازنها.

ـ اجلسي. وإنّ غبتِ عن الوعي، فلا بأس، أنت الآن على متن المركب.

مع أنه لم ينظر إليها مباشرةً إلا أنه شعر أنها تحملق فيه، وهو يرشدها إلى المقعد بجانب الدفة.

وتمتمت: «إن طريقتك مع المرضى ساحرةٌ يا دكتور. أين تلقيت تعليمك؟ في الكلية الوطنية للأدب واللياقة؟».

سدد إليها نظرةً فيها من الغضب ما يلذع. إنها فعلاً أكثر النساء اللواتي التقاهن إثارةً للغضب، أو بالأحرى اللواتي قد يلتقيهن يوماً. وسرعان ما قال لها: «لقد تحطم قاربي، والفضل لك. فأيّ درجةٍ من الابتهاج تريدين مني أن أبدي؟».

أحسّ أنّ ذكرى الحادث اجتاحتها مجدّداً حتى الإجفال. ففتحت فمها لترد عليه بالمثل، لكنها عادت فأغلقته، ثم أشاحت بوجهها بعيداً قبل أن تتمتم: «من غير الضروري أن تكون سريع الغضب على هذا النحو».

ـ بما أن سرعة الغضب كامنةٌ فيك، فلا بدّ أنني التقطت العدوى منك.

ما إن أفلتت منه هذه الملاحظة حتى أجفل. ما كان يجدر به أن ينبس بهذا التعليق. أمَا كفاها الجرح الذي أصابها والصدمة التي ألمّت بها؟ معظم الناس في حالتها يصبون غضبهم على أي هدفٍ متوفر، وغالباً ما يختار

الحظَّ الطيب. وحين بدأت شفتها السفلى بالارتعاش، شعر بالغباء لفظاظته معها. فما ذنبها إن كان الضباب يلفّ المكان، وتاهت عن سبيلها؟.

بدا له أنها فعلاً لا تملك القارب الذي أبحرت به. وحانت منه التفاتةٌ إلى ملابسها. كانت ترتدي جينزاً باهتاً، أبعد ما يصفه المرء بالجديد، تعلوه سترةٌ بيضاء من النّيلون، أما معصمها الأيسر، فتغطيه عصابةٌ، وقدّر مارك أنها تخفي ساعةً أو سواراً. لكن، إن لم يكن هذا السوار مرصعاً بالماس، فيبدو أنها لا تملك ما يكفي من المال لتصلح القارب المتضرر.

انتقل بحذرٍ إلى الجانب الآخر من مركبه، واختلس النّظر إليها ثم سألها: «لمن هذا الزورق؟».

ارتمت على المقعد الجلدي الرمادي الطويل، ثم رفعت المنديل عن جبينها، ومسحت به الدم النازّ من رأسها. أثار تصرفها اعجاب مارك، فقد تلاشى خوفها حين اضطرت للتعامل مع منظر دمها.

رفعت إليه ناظريها، ثم أجابته: «إنّه هذا الرجل لا غير... كنت أتدرب لأشترك في سباق المحلة الأسبوع المقبل».

ـ أيّ سباقٍ هذا؟.

عادت فرمقته بنظرةٍ لم تدم طويلاً، لكنّها كانت كافية ليتبيّن مارك الدموع تترقرق في عينيها.

ـ إنه سباق الزوارق المنظّم لبناء موطنٍ جديد للدبب القطبية في حديقة بورتلاند للحيوانات. وتعود رسوم الدخول لريع البناء.

لم يكن مارك قد سمع بالموضوع، لكنّ عقداً من الزمن مرّ على زيارته الأخيرة إلى حديقة حيوان. وباتت قراءة الصحيفة نفسها ترفاً، نادراً ما يستطيع تدليل نفسه به. ظلّ ينظر إلى وجهها المضطرب لمدةٍ ليست بقصيرة، ثم سألها: «كيف حال رأسك؟».

أغمضت عينيها وتهالكت على الكرسي حتى بدت صغيرة الحجم، منعزلة، ثم غمغمت: «رائع».

عاجلها بسؤالٍ وقد ساوره القلق: «لن تنامي، أليس كذلك؟».

وجّهت إليه نظرةً لا تنم عن السعادة: «لا تجزع يا دكتور. إن غبت عن الوعي، سأنبطح على ظهري، فتكون أنت أول من يعرف».

أحس بضحكةٍ خافتة تكاد تتمكّن منه نتيجةً لفظتها الساخرة، لكنه كتمها وراح يركّز على المحرّك وهو يهدر في الضباب.

ـ شكراً، سأنصت تحسباً لأي صوتٍ مكتوم.

ولمحها من زاوية عينه وهي تدني برأسها، عساها تميّزه جيداً. كانت تراقبه بهدوء بتلك العينين الفضيتين مما ترك فيه أثراً غريباً فاستبدّ به قلقٌ لاسع. وحين التفت لينظر في عينيها مباشرةً، لم يرفّ لها جفن، وبدا واضحاً أن أي حرجٍ لم يخالجها حين ضبط نظراتها.

في الواقع، كان قد وقع في أسر هذه المرأة التي يخالط غضبها شغفٌ عظيم. لم يشح نظرة عنها وراح يتأمل شفتيها المكتنزتين. لو كان لممرضته الأخيرة مثل هاتين الشفتين. . .

أطلقت تنهيدةً وقالت: «كنت أنوي أن أهب قسماً من مال الجائزة الكبرى إلى حديقة الحيوان، فيما أستخدم الباقي لأذهب إلى جاوا».

وانطفأت شعلة الأفكار الجامحة التي ساورته، فسألها: «إلى أين؟».

هزت كتفيها لا مبالاةً، ثم أشاحت بنظرها: «أنا عضوةٌ في جمعية حماية القردة، وهي تنظم رحلةً إلى مجاهل جاوا خلال أسبوعين. وأريد أن أفوز لأستخدم المال للوصول إلى هناك».

بدا مارك غير مصدّق. وما لبث أن ضحك وقال: «أنت تمزحين!».

فالتفتت إليه: «ولماذا أمزح في مسألةٍ كهذه؟».

رفع حاجباً دلالةً على شكّه ثم تابع: «حتّى لو افترضنا أنك فزت، فلمَ تقدمين على خطوةٍ كهذه؟».

قابلته بتقطيبةٍ من جبينها: «لأن العالم بأجمعه بيتي. وأنا أهتم ببيتي يا دكتور، فماذا عنك؟».

راح يدرس عينيها الضيقتين، وشفتيها اللتين رقّتا بعد اكتنازٍ علامة التحدي. وإذا بإحساسٍ بالخيبة يجتاحه، من المؤسف أن تكون امرأةٌ بهذا الجمال وهذا النشاط خرقاء طائشة.

* * *

لم تتوقع ميمي أن تقضي الليلة في كوخٍ عند شاطىء إحدى الجزر المعزولة، فيما يقطب جرحها رجلٌ فظٌ رجعيٌ يعتقد أن انقاذ قردة جاوا أمر مضحك.

لكن، كان عليها أن تقرّ بفضل الطبيب، فضله الوحيد إن جاز القول. لعله معتوه، لكنّ لمسته شافيةٌ فعلاً.

وفيما هو يقطب جرحها، اختلست النظر إليه. بدا تفكيره منصباً على عمله، وكأنّه طبيب بلدةٍ صارم كئيب. لكن، من قال إن هذا يعدُّ صفةً ايجابية؟ فالأطباء الصارمون الكئيبون مملون غالباً.

بما أنه لم يكن أمامها ما تفعله إلاّ التفكير بإبرةٍ تغرز في لحمها، قرّرت أن تصرف انتباهها إلى أمورٍ أخرى، كعيني هذا الطبيب مثلاً. إنهما فعلاً باهرتان، لم يخطر في بالها يوماً أن البني قد يستحيل لوناً مثيراً، غير أن هذا طبيب نجح في إقناعها بالعكس. لعلّ أهدابه الطويلة السوداء هي ما أحدث هذا الفرق. ولكن قلّما يهمها السبب، فلهاتين العينين تأثيرٌ غريب، استمرّ حتّى وهو يرسم تقطيبةً ويصرخ بالأوامر. ربّما ما كانت لتتوقف عن احتجاجاتها لولا هذه النظرات. ولعلها توقفت بسبب الدوار الذي ألم بها، وإلاّ لماذا خيّل إليها أنه أضحى لبرهةٍ بثلاثة رؤوس؟.

ـ ها قد انتهينا. أشك في أن يخلّف الجرح ندبةً.

لمّا ارتفعت يده عن جبينها، أطلقت تنهيدةً أشبه بالندم. وداعبت أنفها رائحةٌ جميلة وإن كانت مشوبة بروائح المطهّر. ولكن، ماذا يجري لها؟ أيعقل أن الضربة التي تلقتها أقوى مما اعتقدت؟.

رفعت يدها، بدافعٍ غريزي، لتتحسس جرحها، ولكنّه منعها، وارتفع

صوته محذراً: «حاولي ألا تلمسيه لمدّة. غداً، يمكنك أن تغتسلي كالعادة. أما هذه الخيوط، فستتحلّل تلقائياً بعد سبعة أو عشرة أيام».

ثم أنزل ذراعها وهو يحكم القبض عليها حتى أعادها إلى حضنها.

فردّت باستهزاء: «شكراً يا دكتور.. ما كانت يدي لتجد طريقها إلى حضني لولا مساعدتك».

سألها: «بالمناسبة، ماذا تخفين تحت العصابة حول معصمك؟».

فأخفضت بصرها، ثم أحاطت العصابة بذراعها بحذر، وأجابت: «ممتلكاتي الأغلى».

وما لبثت أن كشفت عن سوارين من الفضة، مرصعين بحلى صغيرة.

ـ أهداني والداي هذين السوارين. كلّ واحدةٍ من هذه الحلى تمثّل أحد الأماكن التي زرناها.

ابتعد قليلاً ليخلع قفازّيه ثم تمتم وهو يرمي بهما في سلةِ المهملات: «أخبريني...».

ـ لا أملك بوليصة تأمين، إن كان هذا ما تلمح إليه. ولا يمكنك الحصول على السوارين.

فواجهها وهو يرميها بنظرةٍ قصيرةٍ حادّة: «رغم أن بعض زبائني يدفعون لقاء خدماتي بالمقايضة يا آنسة بابتيست، إلا أنني لا أريد سواريك».

لم تدرك ميمي إن كانت تعابير وجهه تنمّ عن التسلية أم الاحتقار؟ وسمعته يتابع: «كما أنني لا أسأل عن بوليصتك، رغم أن السؤال يتعلق بالمال».

فردّت: «لا أملك قرشاً حالياً، قلت لك إنني لا أحتاج لمساعدتك، ألاتذكر؟ ولكنك فرضت نفسك عليّ».

أجابها بهدوء: «أنا إنسانٌ وحشي. والآن، اصمتي لبرهة، ودعيني أتحدث».

رفعت يديها كأنّما تدعوه: «اعذرني! أرجوك! تفضّل بالكلام! كيف

أنسى دائماً أن المبجّلين أمثالكم أكثر أهميةً منّا، نحن المخلوقات العادية؟».

كانت النظرة التي حدجته بها محملة بكل الحقد الذي ملأ قلبها منذ الحادث.

جلس على مقعدٍ مجاور، وكتّف ذراعيه على صدره العريض. ظلت لبرهةٍ تتفحصه بعمق، فيما حافظ هو على وجه عابس. كان يرتدي سروالاً رمادي اللّون وقميصاً رياضياً أبيض. بدا محافظاً جداً، ويشبه فعلاً طبيباً ريفياً يهتم بمرضاه. ما إن وصل إلى كوخه حتى لبس رداءه الأبيض، وتزوّد بكل معداته. لكنها، رغم ذلك، لم تستطع أن تنظر إليه كأي طبيب بل ظلّ ذلك الرجل السيء الطباع الذي عرفته.

ـ هل كنت صادقة حين ادّعيت أنك جبرتِ ساقك؟

بلغت وقاحته حداً انتزع منها شهقة ذهول، وردت: «لماذا؟ أتؤمن بأن تجبير رجلٍ مكسورة قوةٌ أغدقها الله على الأطباء دون سائر البشر؟».

ـ أهذا نفيٌ؟.

ـ ليس نفياً! كان والداي مصورين، برعا في تصوير نماذج عن الحياة البرية. جابا العالم وأشرفا على دراستي وأخضعاني لتجارب قلّما يختبرها غيري من التلاميذ. وبما أننا عشنا وحدنا، كان علينا أن نلجأ لبراعتنا.

وما لبثت أن استقامت، وقد امتلأت زهواً بعد الحديث عن والدين مشهورين، ثم أردفت: «في أحد الأيام، وبينما كنت في المخيّم أغسل ملابسي، زلّت قدمي. ولمّا عاد أمّي وأبي، كنت قد جبرت قدمي بنفسي».

نظر إليها بتمعن حتى شعرت أنه يدرس كلامها، وصدّقها، وإن على مضض، فأحسّت بموجةٍ من الرضا تجتاحها. قد لا يقدّر هذا الإنسان الطبيعة أو حياة التشرد، لكنه بالتأكيد يكنّ اعجاباً شديداً للشجاعة والفطنة.

رفعت ذقنها ونظرت إليه بتحدٍّ: «والآن، أليس لديك ما تقوله؟».

مرّر يده على فكّه، ثم أومأ: «أخبريني، هل ستشكّل تصليحات

المركب عبئاً عليك؟».

توقعت منه أيّ شيء إلا هذا السؤال. فقابلته بتقطيبةٍ وأجابت: «هذا لا يعنيك».

ـ أعرف ذلك يا آنسة بابتيست. ولا يهمني أن يعنيني. ولكن، إن كنت لا تمانعين، كوني لطيفةً معي.

هزت كتفيها لا مبالاةً، فقد خارت قواها، وفقدت قدرتها على الشجار. لم تكن تعاني صداعاً أليماً وحسب، بل إنّها مفلسةٌ ولا تملك مكاناً تأوي إليه. فما كان منها إلا أن أجابت: «قابلت هذا الشاب في سباق نُظِّم في سبيل حملةٍ لتنظيف الأرض قبل يومين، فأخبرني عن هذا السباق، وأنه يملك زورقاً ومستعدٌّ لاعارتي إياه إن أردت الاشتراك».

سرعان ما سرت قشعريرةٌ في جسدها وهي تستعيد هذه اللحظات. ترى، ماذا تفعل الآن؟.

ـ لم يكن هذا الشاب صديقاً حميماً. وليست لديّ أدنى فكرة عن ردّة فعله حين يرى بأي حالةٍ زورقه.

لمّا سلّمت بالمصيبة التي ستحلّ بها، أحست بالغثيان. أماالرحلة إلى جاوا، فقد ألغيت بالتأكيد. لم يبقَ أمامها إلا العثور على عملٍ مؤقت كي تتمكّن من اصلاح الأضرار، وخوض مغامرتها التالية.

ظلّ الطبيب الطويل القامة، العديم النظر، هادئاً لمدةٍ خيّل لها أنها دهرٌ وتناهت إليها دقات عقارب ساعة، فجالت ببصرها في أنحاء الغرفة حتى عثرت عليها. كان المكان من النظافة بحيث يخطف الأبصار. على أيّ حالٍ، أليس الرجل طبيباً؟.

أخيراً، كسر حبل الصمت قائلاً: «اسمعي يا آنسة بابتيست...».

حولت نظرها إليه. كان يصرّ أسنانه. عرفت ذلك ما إن لمحت الالتواء في عضلة خدّه.

ـ لا أملك وقتاً للمماطلة والتلميح. لقد استقالت الممرضة في الأمس، وأنا أحتاج للعون. فهل تقدّمين لي يد المساعدة إن أصلحت المركب على نفقتي؟ ما رأيك في أسبوعين؟.

فغرت فاها، وقد أخذ منها الذهول مأخذاً عظيماً. لم تخطر هذه الفكرة في ذهنها أبداً. ولكنه يعرض عليها عملاً. وسواءٌ كان سيء الطباع أم لا، فإنها تحتاج إلى الراتب. ولا شك أنه من الممتع قضاء بعض الوقت في هذه الجزيرة، فما كان منها إلا أن أظهرت الإذعان: «أعتقد أنه يمكنني أن أطهو وأغسل».

فرفع حاجبه متعجباً: «إنني أحتاج لممرضة».

أجفلت وهي تنظر إليه بعينين ضيقتين: «ولكنني... لست...».

هزّ رأسه متفهماً: «حسناً، فلنسمِها مُساعدةً. أحتاج لشخصٍ يرافقني في جولاتي، ويكون حاضراً في مكتبي، فيزودني بالملفات ويعيّن المواعيد. اطمئني، لن أطلب منك أن تساعديني أثناء جراحةً في المخ».

ظهرت تقطيبةٌ على جبينها، وانتاب أفكارها تشوشٌ جليّ. ترى، لماذا تعجز عن التفكير بوضوح؟ لا شكّ أنها الإصابة في رأسها.

فجأة، مال إليها قائلاً: «أنت تحتاجين إلى العمل، أليس كذلك؟».

رفعت رأسها وقابلت العينين الضيقتين بتصميمٍ حتّى كادت تشعر بالحرارة المتوقدة فيهما. ولكنها ما وجدت إلى النطقّ سبيلاً، فاكتفت بهز رأسها.

وترامى في مقعده، وعلى وجهه تعبيرٌ أبعد ما يكون عن السعادة، ثم أضاف:

ـ إنني أحتاج للمساعدة، وأظنك تفين بالغرض. امنحيني اسبوعين من وقتك، وسأتأكد من عودة الزورق، إلى حالته الأصلية. فما رأيك؟.

فتمتمت والدهشة لم تفارقها بعد: «أولاً، لم... لم يكن الزورق

جديداً».

فقاطعها: «حسناً، سأتأكد من عودته إلى سابق عهده. عاقبيني جزاءً على خطئي!».

سددت إليه نظرةً خارقة، ثم أجابت: «لماذا أنت بغيض هكذا؟».

فمرّر يده في شعره وقال: «آسف».

ثم أخذ نفساً عميقاً، قبل أن يضيف: «ما رأيك إذاً؟».

تساءلت بكآبة إن كانت تريد حقاً البقاء بين أسوار هذه الجزيرة التافهة أسبوعين، تعمل لحسابِ رجل نكد. ولكن، هل أمامها خيارٌ آخر؟ سيتطلب الحصول على عملٍ آخر أياماً عدة، ومن يضمن لها أنها ستتلقى أجراً جيداً؟ أما الأجر الذي عُرَضَهُ، فيفوق ما تخيّلته، وما يعقل أن تناله في أيّ مكانٍ آخر. ولا شك أن إصلاح الزورق سيكلف الكثير. ونظرت إليه وشكٌّ عظيم يخالط أفكارها.

ـ هذا مبلغٌ كبير يا دكتور. يبدو أنك تدفع راتباً خيالياً لمساعديك عادةً.

فأجاب بجديةٍ فائقة: «من الصعب على القاتل أن يحصل على مساعدين فعّالين».

لكن تلك الملاحظة وهذا الوجه الخالي من أيّ تعبير لم يزد ميمي إلاّ ذهولاً. حاولت جاهدة أن تكتم ابتسامةً عريضةً، واكتفت بتوجيه نظرةٍ منتقدة له قبل أن تكتّف يديها على صدرها وتصمت.

ترى، ما مشكلتها معه؟ صحيحٌ أنه وسيمٌ للغاية، لكنه بغيضٌ حقاً. وتراهن، بكل ما تملك، على أن قضاء أسبوعين معه يفوق طاقة كلّ إنسانٍ عاقل.

وفجأة، لمعت في ذهنها فكرةٌ. وقرّرت أنها، لن تبقى معه إلاّ بشرطٍ صارم واحد. فطرحت السؤال، وهي لا تعرف هل تهلّل فرحاً لموافقته أم تنفرجٌ أساريرها لرفضه: «فضلاً عن اصلاح الموكب، هل أنت مستعدٌ لدفع نفقات رحلتي؟».

يا لجرأتها فعلاً!

أما هو، فحملق فيها وسألها: «وأين تذهبين؟».

هزّت كتفيها لامبالاةً وأجابت: «لست . . لست أدري. سأقرّر وجهتي في الوقت المناسب».

ـ يا لها من خطةٍ رائعة!

من نبرته، أدركت أنه يعتقدها غجرية مجنونةً. ولكنّها تقبلت أفكاره هذه بصدرٍ رحب، فالمعارضة التي يبديها أصحاب العقول الضيقة هي مديحٌ بالنسبة لها. وسرعان ما تناهى إليها صوته:

ـ فلنجعلها ثلاثة أسابيع، وسأتكبد مصاريف رحلتك، أياً كانت وجهتها.

أحسّت بخفقات قلبها تتسارع وهي تردّد: «ثلاثة أسابيع؟».

ـ لن يضرّك أسبوعٌ إضافي. فما قولك، هل اتفقنا؟

ما كان منها إلا أن أزاحت خصلةً عن جبينها، وأشاحت بوجهها بعيداً.

منذ توفيّ والداها قبل عشر سنوات، وهي تتنقّل من عملٍ إلى آخر، لذا، تدرك مشقة الحصول على مهنةٍ. وبما أنها لن تحظى بعرضٍ أفضل من هذا، أجابت بالموافقة وهي تكشّر.

حين التفتت إليه مجدّداً، كان ينظر إلى ساعته.

ـ هل أنت جائعة؟

لم تكن قد تناولت طعاماً يُذكر في هذا اليوم. ومع أنه جرح كرامتها في كلّ مرة استخف فيها بكل ما آمنت به، إلا أنها لن تكون غبيةً فترفض أن تسدّ جوعها. وأخيراً، أقرّت:

ـ بإمكاني أن آكل.

اقترب من مقعدها وسألها: «وهل بإمكانك الطهو؟».

ـ طبعاً.

في الواقع، تملكها الاضطراب جرّاء اقترابه منها، ما دفعها إلى الابتعاد عن المائدة قليلاً. وما لبثت أن قالت: «أستطيع الطهو فوق رماد الحمم البركانية إن اضطررت إلى ذلك».

كان قد خلع رداءه الأبيض، ليعلقه وراء الباب، فدفعته ملاحظتها إلى الالتفات إليها. وانعقد حاجباه فأحست أنه لم يصدقها.

ـ لا ضرورة لذلك. فأنا أملك فرناً.

أحسّت أن هذا الطبيب الرزين بحاجةٍ إلى الاسترخاء. فبدأت تمازحه: «يا للأسف، وأين روح المغامرة في هذا؟».

فاتكأ إلى المنضدة خلفه. بدت وقفته طبيعيةً تماماً وجذابةً إلى حدٍّ مقلق. فكّرت في أولئك الممثلين السينمائيين الذين يتدربون لساعاتٍ على هذه الوقفة الذكورية المختالة، بلا جدوى. ثم أدركت أن في تعبير وجهه لمحةً من الاستهجان.

ـ إذاً، أنت تعتبرين الحياة مغامرةً كبيرة، أليس كذلك؟.

الطريقة التي تلفظ بها بكلماته، أرسلت موجات من الغضب في جسدها. وما لبث أن أجابت: «الحياة بحدّ ذاتها مغامرةٌ يا دكتور. وعليك أن تستفيد من الوقت الذي تقضيه فيها».

ثم أضافت وهي تراه يطبق أسنانه: «أتواجه مشكلةً في تقبّل ذلك؟».

ـ أبداً، طالما أنك لن تستقيلي قبل نهاية هذه الأسابيع الثلاثة.

رفعت إليه وجهها والشرر يتطاير من عينيها. إنه يظنها امرأة ماكرة لا تفي بوعودها!.

ـ إن قلت إنني سأبقى، فسأبقى.

سألها وهو يصغي بانتباه: «أهذا وعد؟».

حدّقت فيه وهي تطبق أسنانها بدورها: «وهل ستصلح المركب وتدفع ثمن بطاقة سفري؟».

رمقها بنظرةٍ حادّة، حتى عرفت ميمي أن هذا الطبيب الرزين غير معتادٍ

على أن يشك أحدٌ في كلامه. ثم أجابها بحدّة: «طبعاً يا آنسة بانيست».

فعاجلته بالإجابة: «إذاً، اتفقنا، نفّذ وعدك، وسأبقى ثلاثة أسابيع. إنّما، لن أبقى يوماً واحداً بعد ذلك».

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ زوجته!

اشتبكت عيون ميمي والدكتور بنظرةٍ طويلةٍ معبّرة.

كانت مشاعر ميمي تتراوح بين الغضب والخيبة، ولكنّها عرفت أيضاً طعم الرضا. فلا يحتاج المرء لخبيرٍ ليعرف أن هذا الاتفاق يضايق الطبيب الساحر كما يضايقها.

وفجأة، صدح صوتٌ قوي وضع حداً لمباراتهما. فاعتذر منها، ثم خرج من المطبخ، متوجهاً إلى باب الكوخ الأمامي. وتساءلت ميمي بفضول عمن يحتاج الطبيب في ساعةٍ كهذه. ثم قامت عن مقعدها، وسارت بتمهلٍ حتى بلغت غرفة الطعام. حيث استندت إلى المائدة المستديرة وراقبت الطبيب يمشي بتشامخ نحو المدخل.

حين فتح مارك الباب على مصراعيه، طالعته فروةٌ بيضاء، تنبح وتلوّح ذيلها القصير بشدّة. ما كاد هذا المخلوق الصغير يقفز إلى الداخل، حتى ظهرت امرأةٌ جذابة بشعرٍ ضاربٍ إلى الحمرة يصل حتى الكتفين، ونمشٍ غزير يغطي وجهها الجميل.

عانقت المرأة الطبيب، ثم قالت: «مرحباً، رأيت المنزل مضاءً، وتصورت أنك ترغب في عودة «فوفو»».

بادلها مارك العناق قبل أن يتكلّم: «إنّ الضباب ينقشع».

ـ لكن الريح ازدادت قوة. . .

لمّا رأت المرأة ميمي، سكتت، ثم استدركت: «لم ألحظ أنك تستقبل مريضة».

وفي الوقت نفسه، انتبهت كتلة الزغب البيضاء لميمي، فهرعت إليها، وأخذت تنبح وتقفز، مرحبةً بها بحماسٍ.

وإذا بالمرأة تنادي: «إهدئي يا فوفو! لا يجدر بك مضايقة المرضى».

طوق مارك كتفي المرأة، ثم فسّر لها: «إنها ليست مريضةً يا سوزان، بل مساعدتي المؤقتة. لقد عثرت عليها الليلة».

بعدئذٍ، أشار إلى ميمي قائلاً: «سوزان ميريت، أعرفك إلى الآنسة. . . بابتيست».

أحسّت ميمي بوخزة ألم وقد أدركت أنه نسي اسمها. لكنها استغربت للاحساس الذي اختلج في صدرها. ترى، هل تضايقت حين اكتشفت أنه متزوج؟ بالطبع لا، فهي غير معجبة حتى بهذا النكد البغيض.

حين أدركت أن مارك وسوزان اقتربا، مدّت يدها أخيراً وقالت: «أنا ميمي، ميمي بابتيست. تشرفت بلقائك».

شدّت سوزان على يدها، ثم نظرت إلى مارك بتساؤل: «أعرف أنه من الصعب الحصول على مساعدةٍ يا عزيزي لكن ألا تعتقد أنه من المخالف للقوانين، أن تضرب النساء على رؤوسهن لتنال مرادك؟».

ابتسم مارك ابتسامةً عريضة، كان لها وقع الصدمة على ميمي. لقد بدّلت الابتسامة من ملامحه، حتى أضحت وسامته باهرةً. وإذا بها تبتلع ريقها بصعوبة. أدركت أنه سيصعب عليها التعامل مع ابتساماته، حتى وإن كان يجيد إخفاءها.

ـ كم هذا مضحك يا سوزان.

ثم ربت على ظهر المرأة بودّ، قبل أن يعيد يده إلى جانبه.

أما الكلبة، فظلّت تقفز حول ميمي. بدت صغيرةً، بلونٍ أبيض صافٍ.

أمر مارك: «اهدأي يا فوفو. حان وقت العشاء».

فجأة، توقفت فوفو عن القفز، ثم دارت في الغرفة، حتى وجدت طريقها إلى المطبخ.

عندئذٍ، التفت مارك إلى المرأة صاحبة الشّعر الضارب إلى الحمرة، وسألها: «كيف حال كايل؟».

ابتسمت سوزان وعلا توردٌ خفيفٌ وجنتيها: «إنّه ألطف طفلٍ على وجه الأرض».

ثم لامست خدّ مارك براحتها وأضافت: «أشكرك على هذا الطفل الملائكي».

وما لبثت أن تنحنحت قليلاً، وكأنها تقاوم الانفعال الذي استبدّ بها. كادت بسمتها تختفي لولا أن أشرق وجهها مجدداً وانفرجت أساريره: «لِمَ لا تزورنا أحياناً؟».

فغمز بعينه وأجاب: «هذا وعد».

التفتت سوزان إلى ميمي ونبهتها: «إيّاك أن تدعي وحش الشغل هذا يرهقك بالأعمال. وذكّريه أن يأكل دائماً، اتّفقنا؟».

وأحاطت خصره بذراعيها ورمقته بنظرةٍ مؤنبة وهي تضيف: «أنت هزيلٌ جداً».

فإذا بجاك يطلق ضحكةً عالية، ملأت أرجاء الغرفة بدفءٍ غير متوقع، ويقول: «ألن تتوقفي عن مضايقتي أبداً؟».

طبعت قبلةً سريعة على خدّه وأجابت: «حسناً، حسناً، أنا ذاهبة. أظن أن كايل، متى كبر قليلاً، سيسرق فوفو منك، لاسيّما وأنها تحبه وتعتبره ابنها».

فمازحها: «إن أخذ كايل فوفو مني، فعليك أن تمنحيني حقّ الزيارة».

ردّت على حجته بمثلها: «وكأنك تملك وقتاً للزيارات».

التفتت إلى ميمي، ثم سألتها وقد بهتت ابتسامتها: «إن لم يكن مارك قد ضربك، فكيف أصبتِ؟».

أحسّت ميمي برغبةٍ ماسةٍ في أذيته، فردّت: «بل ضربني!».

وبعد أن سددت إليه نظرة توبيخ ساخرة، أردفت: «تعرّضت للقرصنة في عرض البحر. لقد صدم قاربي بقوةٍ، ثم قام باختطافي. كانت تجربةً رهيبة».

خيّل إليها أن ابتسامة مارك استحالت عدائية، لكنه ما لبث أن قال: «لقد أنعم الله عليّ بامرأتين خفيفتي الظل في غرفةٍ واحدة. يا لحظّي!».

رمقته سوزان وعلّقت: «كنت أجهل أنك قرصانٌ شرير».

سارعت ميمي إلى الكلام قبل أن يتمكّن مارك من التفوه بشيء: «ها أنت ترين الجانب الشرير من شخصيته. ومما زاد الطين بلة أنه أصرّ على أن أعمل لحسابه ثلاثة أسابيع كاملة، مقابل أن يدفع ثمن التّصليحات».

ابتعدت سوزان عنه ووضعت يديها على خصرها قائلة: «خلف هذا القناع الرزين، ها أنا أكتشف أنك متورطٌ في أعمال اعتداءً وخطفٍ وابتزاز».

أخذ مارك ينقلّ نظراته بين سوزان وميمي، حتى استقرّ أخيراً على سوزان: «فضحتِ أمري. أنا مجرمٌ خطير كسفاحي القرن التاسع عشر».

رغم أن ابتساماته ومداعباته كانت موجهة إلى سوزان، إلاّ أنها أثّرت في ميمي تأثيراً لم ترغب فيه. فليس في هذا الطبيب صفةٌ واحدة من الصفات التي تعجبها في الرجل. حسناً، تقرّ أن فيه بعض الصفات الأساسية كالذكاء والوسامة والأسنان الجذابة، غير أنها، أولاً وأخيراً، ليست أهم الصّفات.

قهقهت سوزان: «وهل أنت جاك السّفاح؟ آسفة يامارك، ولكني لا أصدق ذلك.. فما أنت إلاّ الطبيب ميريت الذي يرفض الفساد والرشوة».

ثم واجهت ميمي وأردفت: «ألم يخبرك لماذا استقالت الممرضة الأخيرة؟».

هزّت ميمي رأسها نفياً. فقالت سوزان غير عابئة باعتراض مارك: «لأنه لم يرضَ أن يلعب معها لعبة الطبيب والممرضة، إن فهمتِ ما أعنيه».

اختلست ميمي النظر إلى مارك، وقد أجفلها هذا التلميح الجريء. كانت أشعة الصيف قد لوحت وجهه بسمرةٍ جذابة، غير أنّ كلام سوزان زاد محيّاه قتامةً. وأخيراً تمتم: «شكراً جزيلاً يا سوزي. يبدو أنني نسيت أن أذكر هذا التفصيل الصغير».

وما كان من سوزان إلا أن حيّت ميمي بمزاح: «إنه إنسانٌ لا يقبل المساومة، ولكننا نحبه في كل الأحوال».

تأملت ميمي الدكتور بفضول. كان التورد الذي علا سمرته قد كشف النقاب عن حساسيةٍ مغرية. لعله فظ، لكنه جذابٌ حين يصاب بالإحراج. لاحظت ميمي أن زوجته لم يراودها أدنى شك في إخلاصه، لا سيّما أنها راحت تغيظه وتحدثه عن كل أولئك النسوة، عشيقاته ربّما.

زمجر مارك: «ارحلي يا سوزي. يتناهى إليّ بكاء الطفل».

فقهقهت وأجابت: «أحبك أيضاً يا عزيزي».

ما إن أنهت جملتها حتى ربّتت على خدّ مايك بودٍّ، ثم توجهت إلى ميمي قائلة: «إننا نسكن فوق التلة، لذا آمل أن أراك باستمرار. إني أعاني من قلة النساء على هذه الجزيرة. وكم أتوق إلى محادثة امرأة!».

صمتت قليلاً ثم أضافت: «هذا إن افترضنا أن القبطان الشرير قد منحك إجازة».

هتفت ميمي: «لن أتوقّع ذلك منه بتاتاً».

رجّعت الغرفة أصداء ضحكة سوزان الخفيفة، وهي تغلق الباب بهدوء. فجأةً، وجدت ميمي نفسها تواجه تلك التكشيرة العابسة مجدّداً. وما لبث أن قال لها وهو يشير إلى المطبخ: «سأدلّك إلى غرفتك. إنها في الخلف، هناك».

ضربت له سلاماً مرحاً، ثم قالت: «حاضر أيّها القبطان. ترأس المسير

يا سيّدي».

تقدّم نحو المطبخ والعبوس ما زال يكتنف ملامح وجهه.

ـ أخبريني عن مكان حاجياتك، وسأطلب تسليمها إليك في الغد.

ـ حسناً، سأكتب لك العنوان.

كانا يعبران رواقاً قصيراً بجوار المدخل الخلفي حين قال: «ستنامين هنا».

وسرعان ما شرّع باباً، وأضاء الكهرباء، ليكشف عن غرفةٍ صغيرةٍ بسيطة الأثاث. بدت الحجرة جذّابةً، قديمة الطّراز ونظيفةً للغاية.

ـ الحمام إلى يمينك في نهاية الرواق.

ثم أمسك بمقبض بابٍ، مزخرفٍ بالقرب منها، وأضاف: «وهذه غرفتي!».

تسمرّت لبرهةٍ في مكانها، ثم استدارت بسرعةٍ لتواجهه، وهي تردّد: «أقلت غرفتك؟».

ازدادت ملامحه تجهماً. بدا سؤالها محملاً برعبٍ لم يسمعه من قبل.

ـ هذا منزلي يا آنسة بابتيست. ظننتك فهمت ذلك.

وإذا بخوفٍ شديدٍ لم تعرف له سبباً يخالجها. فردّت: «لكن. . ألا تعيش فوق التلة؟».

فاستند إلى الباب، وأجاب: «كلاّ. كنت أعيش هناك في ما مضى، إنّما هذا هو منزلي الآن».

يجدر بميمي ألاّ تهتم إن كان متزوجاً أم لا، لكنها وجدت تصريحه باعثاً للدهشة. فقد أحسّت أن علاقةً وديةً تجمع بينه وبين سوزان. وما لبثت أن هزّت كتفيها استهجاناً، وتمتمت: «هذا مؤسفٌ جدّاً».

ـ حقاً؟

اضطرت إلى الإشاحة بوجهها، وهي تحاول السيطرة على مشاعرها، ثم سألته: «أنت منفصلٌ إذاً؟».

- ماذا؟.

- أقصد منفصل عن زوجتك وطفلك.

التقت نظراتهما، وكأن عينيها لم تستطيعا الحؤول دون ذلك.

أما هو، فكتّف ذراعيه، وكرّر: «زوجتي وطفلي؟».

- أتعاني من مشكلة في السمع يا دكتور؟.

ثم أشارت إلى غرفة الجلوس، وأردفت: «أتحدّث عن سوزان، أي السيدة ميريت، وطفلكما كايل. هما يعيشان فوق التلة، فكيف تعيش هنا؟».

زرعت الفكرة التجهم على وجهها. هذا الطبيب رجلٌ مثيرٌ وسيمٌ، وما من امرأة تهجره لشكله. قد يكون وقحاً للغاية، لكنه بدا متفانياً مع سوزان.

- ترى لماذا انفصلتما؟ أبسبب ساعات عملك الطويلة، أم بسبب الكمّ الكبير من الممرضات العاشقات؟.

وسرعان ما تعجّبت من تلك الحاجة الماسة في نفسها لمعرفة السبب.

راقبها بفضولٍ، قبل أن يهتف: «عفواً؟».

أطلقت تنهيدةً ساخطة. كيف لرجلٍ أن يكون طبيباً وأبلهاً في الوقت عينه؟ وأخيراً، قالت بوضوح: «لمَ لا تعيش وسوزان تحت سقفٍ واحد؟».

لوى شفتيه، وعلّق: «لم لا أعيش. . .؟».

يا لإزعاجه! فسألته: «أتحاول اخباري أن الأمر لا يعنيني؟».

لقد نشأت في البرية، وهي تفتقر للّباقة واللطافة. ومن هنا أسئلتها الغريبة أحياناً. لكن الناس أحرارٌ، وبإمكانهم الامتناع عن الإجابة. وكانت ميمي تندهش حين ترى أن أغلبهم يرد على أسئلتها، بملء إرادته.

- أنت محقة. هذا لا يعنيك يا آنسة بابتيست. لكن ما من سرٍ في

الموضوع، وستعرفين الأمر لاحقاً.

انتظرت كلماته التالية، وهي تراقب عينيه. كان فيهما جاذبٌ قويّ، ووميضٌ مريبٌ.

- تسأليني عن السبب. . أعتقد أن زوجها لن يوافق.

اختلط الأمر على ميمي: «زوج. . . ولكن، أليست السيدة ميريت؟».

أجاب بجديّة: «بلى. إنها السّيدة ميريت، زوجة أخي».

كان الذهول قد تملّك ميمي تماماً، وشعرت بشيءٍ من الهلع، فسارعت تقول: «إذاً، لمَ شكرتك على الطفل؟».

ما إن تلفظت بتلك الكلمات، حتى ساورها الندم، فلوّحت بذراعيها: «لا! لا! إنسَ سؤالي. أحياناً، أتمنّى ألا أتدخّل في أمور الآخرين».

فلوى شفتيه بسخريةٍ، وأجاب: «إنّما تفعلين دائماً العكس على ما يبدو».

وما لبث أن ابتعد عن الجدار، وأضاف: «لكن، حرصاً على أحاسيسك المصدومة، اعلمي أن سوزان لم تشكرني إلاّ لأنني ساعدتها على تبنّي الطفل».

فغرت ميمي فاهها بصمتٍ. شعرت بالغباء، وبرغبة ملحةٌ في قطع لسانها. تمتمت أخيراً: «كلامك منطقي».

- إذاً، سأنام اللّيلة قرير العين.

أجفلتها سخريته اللاذعة. أما هو، فالتفت نحو المطبخ، وقال: «بالنسبة للعشاء، ماذا تودّين أن تأكلي؟».

فغمغمت: «طبق الأغبياء!».

تجاوزها وانعطف في نهاية الممر. أحسّت ميمي أنه يقاوم ضحكةً خفية. يا لهذا الرجل الوقح! لم يكن أبله ولم يعانِ ضعفاً في السمع! بل كان يتمتّع بوقته وهو يراها تنسج خيوط حكايةٍ وهمية! لا بدّ أنه تسلى وهو يتفرّج على هذه الحمقاء الصّغيرة!

أخذت نفساً عميقاً، عساها تستعيد نشاطها، قبل أن تقرّر أن تتبعه. حين دخلت المطبخ أخيراً، كان يضع قدراً فوق النّار.

سألها من غير أن يلتفت إليها: «ما رأيك في السباغيتي؟».

في الواقع، كانت قد فقدت شهيتها. لكنها افترضت أنه يجدر بها تناول الطعام.

ولمّا لم تجبه، اختلس النّظر إليها وقد عقد حاجبيه: «لا تقولي لي إن اعداد السباغيتي يخلو من المغامرة، وإنّك تفضّلين أن تجوبي الأدغال بحثاً عن فريسة تصطادينها بيديك؟».

وما لبث أن أشاح بوجهه وتابع: «الوقت متأخرٌ، وأنا منهكٌ، كما أننا نعاني نقصاً في الطرائد على هذه الجزيرة، فإما أن تأكلي السباغيتي وإمّا لا شيء!».

تحوّل ذلّها إلى غضبٍ شديد: «لم أنبس بكلمةٍ يا دكتور... سآكل السباغيتي».

ثم توجّهت نحو الفرن، وتناولت القدر منه، قبل أن تضيف: «إذهب وازعج أحداً غيري، وسأناديك حالما يجهز الطّعام».

حدّقت فيه بسخطٍ متفاقم، فيما تراوحت ملامحه بين الانزعاج والحيرة، حتى استقرّت أخيراً على الكآبة. فهز رأسه وقال: «أنا آسفٌ يا آنسة بابتيست. كان يومي طويلاً ومرهقاً».

أحسّت بدافعٍ غريب لتملس على شعره اللاّمع وتزيح الخصلة المتدلية على جبينه، لكنّها ثبّتت يديها بإحكام على مقبضي القدر. حسناً، إنها تحسّ بارتعاشٍ خفيفٍ حين تكون بقربه، فهي أولاً وأخيراً أنثى، إلاّ أنّها لن تفقد عقلها بسبب رجلٍ لا يتمتّع بحس المغامرة مثلها. ومن الغباء أن تضيع في سحر عينين بنيّتين، لن تملآها إلاّ حزناً حين يحين موعد الرّحيل.

تنحنحت قليلاً، ثم هربت نحو المغسلة، وقالت: «أما أنا، فكنت آكل

الحلوى طيلة النهار، لذا أحسّ بالانتعاش كزهرة الربيع، هذا إذا ما استثنينا الجرح في رأسي طبعاً. والآن، اذهب!».

حاولت جاهدةً أن تصرف أحاسيسها عنه، لكن بلا جدوى. وتلك ميزة أخرى يتحلّى بها الطّبيب مارك ميريت، وهي مزعجة للغاية، فمن الصّعب أن يتجاهله المرء، سواء كان غاضباً أم مبتسماً أم واقفاً بلا حراك.

ولمّا لم يكن باستطاعتها أن تراه أو أن تسمعه، افترضت أنه لم يحرّك ساكناً. لكن، بعد لحظات، تناهى إليها صوت البرّاد وهو يفتح. فاختلست النّظر إليه، ورأت مارك يخرج علبة همبرغر. سألته، وقد لاحظت أن الرّجل لم يسمع أوامرها جيّداً: «ماذا تفعل؟».

نظر إليها لبرهة، ثم تقدّم نحو الفرن قائلاً: «غداً يوم الأحد. وهو يوم عطلة، إن لم تطرأ أي حالةٍ طارئة. سيتسنى لك الوقت لتستقرّي وتتعرّفي إلى الجزيرة».

ثم فتح خزانة إلى جانب الفرن وأخرج مقلاةً: «سأترك لك هذه الليلة قميصاً وجوارب، لترتديها بعد الحمام».

فاجأها عرضه وأدركت أنها تبدو شاردة الذهن، فسارعت تقول: «شكراً».

كاد التّوتر بينهما يظهر للعيان. لا تذكر ميمي المرة الأخيرة التي شعرت فيها بمثل هذا الاضطراب بسبب رجل. لكنها تعيسةٌ، تعيسة لأنّها سجينةٌ معه على هذه الجزيرة ولأنها خسرت رحلتها إلى جاوا.

إنّما عليها أن تتناول الموضوع بحياد، وتعترف بأن الذنب ذنبها.

وما لبثت أن أجبرت نفسها على مواجهته، وتلفظت بالكلمات الصعبة: «اسمع يا دكتور...».

فكّرت أنه يجدر بها أن تعتذر منه. أما هو، فلم يرمقها بأيّ نظرة، بل تابع تحضير الطعام. فعادت تهمس، وهي تدرك أن الاعتذار ليس أفضل

مزاياها: «مارك...».
وهنا، توقّف وحدّق فيها وهو يرفع حاجبه متسائلاً.

فهزّت كتفيها لامبالاةً، وقد أخذ منها الإرهاق كلّ مأخذ. لقد نالت نصيبها من التعب، وعانت صداعاً أليماً، إنّما عليها أن تقوم بواجبها فتعترف بذنبها.

ـ أنا آسفة بشأن مركبك.

وسرعان ما قطعت بنفسها الصلة بين عينيهما وتناولت الشوكة من يده: «ستدفع أموالاً طائلة لإصلاح الزورق، وأخبرتك أنني سأعمل لأفي ديوني. فدعني أعدّ العشاء على الأقل».

كان قوي الجسد، عريض الصّدر. سحَرَها عطره وقربه منها حتى سلباها رباطة جأشها. ولو لم يكن عبوساً، ويعيش حياة تقليدية، لظنّته الرجُل الذي لطالما حلمت به، وانتظرته، الرجل الذي سيحبها كما أحب أبوها أمّها.

وما لبثت أن لامت نفسها لأنها أضاعت ثانيةً من وقتها، وهي تنسج أحلاماً رومانسيةً سخيفة حول هذا الطّبيب الرزين. وسألته: «أرجوك؟ دعني أقوم بذلك، واذهب!».

ضاقت عيناه لبرهةٍ قبل أن يهزّ رأسه نفياً: «كلاّ يا آنسة بابتيست. لست مضطرةً للقيام بأعمال إضافية، بخلاف ساعات العمل».

فدفعته برفق، وهتفت: «هذه سخافة! اذهب! استحم! خذ قيلولة! اثقب الجدران! افعل ما يحلو لك للاسترخاء، ودعني أفي بوعدي».

ثم دفعته بشدةٍ أكبر، وتابعت: «هيّا، تحرّك!».

فصاح: «توقفي! فلست فيلاً غائصاً في مستنقع!».

رمقته بنظرة تحدٍّ، وأجابت: «هل أنت متأكد من ذلك يا دكتور؟».

تمدّد مارك على ظهره، وقد هدّه التعب والانفعال. ما هي مشكلته بحق السماء؟.

إنه مرهقٌ لا أكثر. لقد بدأ يومه في الخامسة صباحاً، وها هي السّاعة تقارب الثانية صباحاً، وكل ما يفعله التمدّد والتحديق في السّقف. لِمَ لا يداعب النعاس جفنيه؟ كان في العادة يغط في النّوم، قبل أن يتهالك على الوسادة. ولم يدرك، قبل اللّيلة، أن فوفو تشخر.

أطبق عينيه، وحاول أن يتجاهل الشّخير. لكنه لو واجه الواقع، لعلم أن الشّخير ليس سبب أرقه، بل امرأةٍ تدعي ميمي بابتيست، بدأت تدريجاً تشغل عقله.

ما إن وقع عليها نظره على متن ذاك القارب اللّعين حتى انقلبت أفكاره رأساً على عقب.

أمسى أكثر طيشاً، وتسارعت دقات قلبه. لم يختبر في حياته شعوراً كهذا وهذا ما يخيفه!.

لقد عاد إلى جزيرة ميريت بعد أن اكتشف أنه لم يخلق ليكون طبيباً في مدينةٍ كبيرة. فقد اشتاق إلى بلدته وأصدقائه وذلك النمط التّقليدي من الحياة الذي اعتاد عليه. لم يرغب في إدارة شركة العائلة، ولهذا سُرّ سروراً بالغاً حين تولّى جاك الأمر. لكنّ جزيرة ميريت تشكل مسألةً أخرى. لقد حاول أن يعيش في مكانٍ آخر، غير أنه اكتشف بعد سنواتٍ قليلة أنه لم يذق للسعادة طعماً إلا في الجزيرة، حيث الموطن الذي يحلم به.

لكم أحبّ الطبيب العجوز فليت! لقد اعتاد منذ الصغر أن يقوم معه بجولاتٍ، وأصبح لديه معارف في الجزر المجاورة. لذا، حين تقاعد الدكتور فليت ورحل وزوجته إلى مونتانا ليعيشا قرب أحفادهما، اتّخذ مارك الجزيرة مقراً له.

كان ينوي أن يختار زوجةً من إحدى الجزر القريبة ويؤسس عائلةً، سيّما وأن معظم أصدقائه قد تزوجوا وأنجبوا.

فالطبيب يحتاج للاستقرار، وميمي بابتيست هي أبعد ما يكون عن

الاستقرار. إنها أشبه بطائرٍ جميل يتوق إلى الطيران. وهو لا يجرؤ على أن يحبها، لأن الطائر حين يطير، يرحل بعيداً.

حين وقع أسير سحرها، اعتراه شعورٌ قوي بالانزعاج. لماذا يتصرف كرجلٍ، لا كطبيب، حين يلامس شعرها صدفةً ويستنشق رائحة بشرتها الخفيفَة؟ لماذا يرتبك كلّما سمعها تناديه بوقاحة.

أنى له أن يشبع جوعه إلى الشغف الذي تضفيه على كل كلمةٍ، كل نظرةٍ، كل حركةٍ؟ إنها مزيجٌ من السخط والبهجة، من الإزعاج والسحر! وهي، بالتأكيد، ليست المرأة التي تمنّاها!.

عليه أن يسحق هذا الشعورالذي يخالجه. ووعد نفسه أن يكافحه مهما كان قوياً، وعد نفسه ألاّ يتورط في هذه العلاقة. كان من السّهل عليه أن يصدّ أورسولا وأمثالها، فدولاب الأعمال لا يدور إن نشأت علاقةٌ غير مهنية بين الموظفين. لكن، كيف له أن يكافح المشاعر التي يكنّها لميمي؟

إنه يريد هذه المرأة، لكنّه خائفٌ من أن يعلق في شباكها، وبما أنه يعرف تاريخ آل ميريت، فهو يعلم أن قلوبهم لا تتعلّق بحبيبٍ أو تخسر وليفاً من دون أن تعتصر ألماً ودموعاً. فوالده لم يعد إلى سابق عهده منذ وفاة أمّه. أما جاك فعانى الأمرّين لسنواتٍ حين فقد تاتيانا، قبل أن تظهر سوزان في حياته بعد سنتين. سوزان «ملاكه الصغير المنمّش».

نعم، إنه يريد زوجةً. عاد إلى البلدة ليعثر على واحدةٍ، لكنها لن تكون ميمي بابتيست! لن تكون هذه الغجرية، التي ما إن تحطّ رحالها حتى تسافر مجدداً! دعك منها يا ميريت، واخلد إلى النوم!.

انزعج مارك من نفسه لانشغاله بامرأةٍ سريعة الغضب، فنهض من سريره، وسار بخطىً خافتةٍ نحو الباب. حين وصل إلى الرواق، اصطدم جسده بشدةٍ بجسم ما.

لم يكن الطيفُ المتسلّل الذي ارتطم به طويل القامة، بل بدا ملمسه

ناعماً إلى حدّ لم يتوقعه. كلّ ما استطاع فعله هو أن يتمنى أن يكون المجهول مجرّد سارقٍ.

* * *

٣ ـ لماذا لا تحبّني؟

لم تستطع ميمي أن تتبيّن طريقها في عتمة الرواق، لكنّها اعتمدت على حاسة اللمس القوية التي تمتاز بها. وفجأة ارتطمت برجلٍ متين البنية! وأحس كلّ جزءٍ من جسدها برجولته. ولمّا تناهت إلى مسامعها شتيمةٌ مكتومة، عرفت أن الطّبيب يعبّر عن سعادته الغامرة بلقائهما اللّيلي.

تمتمت، وقد أغضبها امتعاضه الواضح: «هذه المرّة، صدمتني فعلاً يا دكتور!».

تمنّت لو يتملكها بعض الامتعاض الذي سيطر عليه. وفجأةً، لامست يداها صدره، فأحسّت بالدفء الذي يلفه، والقوة التي يتمتّع بها. وليت الأمر اقتصر على ذلك! بل سرعان ما كشفت أناملها دقات قلبه المتسارعة التي رغم سرعتها لم تعادل خفقات فؤادها.

وانعدمت المسافة بينهما، فشعرت برائحته أقوى وأشدّ وقعاً. لكنها، ما لبثت أن طردت الصور التي داعبت مخيلتها، وهي تذكّر نفسها بأن هذا ليس في صالحها، وترجو أن يصبح لقاؤهما هذا طيّ النسيان. حين ازدادت المسافة قصراً، دهشت حين أدركت، للمرّة الأولى، أنه يطوقها بذراعيه.

تمتمت بصوتٍ يكاد يكون هامساً: «يمكـ. . . يمكنك أن تتركني الآن، لن يغمى عليّ. لقد واجهت مشاكل أكبر. . . .».

فقاطعها مارك بوقاحة: «حين صدمك غيري من الرجال؟».

لمّا سمعت سؤاله الفظّ، اجتاحها الذهول، وأخذت عيناها تقدحان شرراً. أمّا هو، فردّ عليها بفكٍّ ثابتٍ ونظرةٍ ثاقبة، ولا مبالاة مرتسمةٌ على وجهه. ما كان منها عندئذٍ، إلا أن عاجلته بإجابةٍ:

ـ كنت أنوي أن أقول: حين صدمتني سمكة قرشٍ نتنة!.

سكتت قليلاً وهي تتساءل كيف يحقّ له أن يتدخل في حياتها العاطفية، ثم تابعت: «لكن، لنعتمد إجابتك يا دكتور، فهي أكثر نبضاً بالحياة!».

.توهج وجهه غضباً فجأة، لكن الصّمت عاد ليلف المكان.

أنزلت يدها إلى موضعها وهي تمرّ بصدره. وتساءلت لِمَ لم تكتفِ برفعها، بكل بساطة. لكن أناملها أبت إلا أن تمرّ على طول ساعديه، قبل أن تبلغ معصميه. وهنا، توقّف عقلها عن التّفكير! ها هي مرة أخرى تتصرف بتسرع وحماقة!.

كيف تجرؤ وتكن له إحساساً لا يمتّ إلى الغضب الحانق بصلةٍ؟ شعرت أن في عجرفته المتخلّفة ما يؤذي أحاسيسها ويدفعها إلى الجنون. لكنّها تماسكت وبلعت ريقها وهي ترجو ألا يخونها صوتها، ثم تركت غضبها يحرّرها من ملمس راحتيه: «إن كان هذا اغراءً يا دكتور، فابذل مزيداً من الجهد في المرّة القادمة. إن رأسي يؤلمني، لذا اعذرني، إنّي على موعدٍ مع خزانة أدويتك وحبة أسبرين».

ثم ابتعدت عنه والدّوار يتملّكها. مشت بترنّح وهي تمدّ يداً إلى الجدار عساها تستند إليه، فسارع إلى الإمساك بها، وأوقفها عن المسير. وما لبث أن قال بنبرة أقلّ جفافاً:

ـ اسمعي يا آنسة بابتيست. . . سامحيني، فلم أكن. . . بكامل وعيي.

جذبها بقوّة وكأنّه يجبرها على الالتفات إليه، قبل أن يتابع: «في مكتبي الدواء الناجح لصداعك».

بعدئذٍ، أشار إلى المطبخ، وهو يضغط على معصمها برفقٍ: «أنا جائعٌ، فماذا عنك؟».

ابتسم ابتسامة قصيرة، إنما ذات تأثير بالغ. وفضّلت ميمي ألا تفكّر في العواقب إذا ما رسم الدكتور على وجهه ابتسامةً عريضةً لها وحدها.

أخيراً، هزّت كتفيها لا مبالاةً، وأومأت برأسها: «حسنٌ، قد آكل رطلين من اللحم، مع كيسٍ كبيرٍ من الخبز».

اتسعت عيناه لبرهة، حتى تبيّنت ميمي بوادر روح مرحةٍ حقيقيةٍ في نفسه. فأجابها: «رائع، أعدّي أنت السندويشات وسأحضر الدّواء».

أوصلها إلى المطبخ، من غير أن يفلت يدها. وتعجبت كيف لم تتحرّر من قبضته طيلة هذا الوقت. حين أضاء الكهرباء، أجفلت، وقد أعماها النّور المتوهج الذي سطع فجأةً، وآلمها بشدّة.

اختلس مارك النّظر إليها، ثم بادر إلى اطفاء النور، وهو يسأل: «ألا تتحملين الضوء كثيراً؟».

فاستمرّت تراوغه وهي تعلم أن الذّنب ذنب هذا الصداع اللّعين: «كيف أتحمّل ضوءاً بمعدل خمسة آلاف واط؟».

ـ أظن بإمكاني أن أدبّر ضوءاً ملطّفاً لآلام الرأس!

ثم أفلتها وتناول شموعاً قصيرة وعلبة ثقاب. وبعد ثوانٍ، كانت شعلةٌ خفيفة قد ملأت الغرفة بنور خافت.

واجهها سائلاً: «أهذا أفضل؟».

انعكس الضوء الخافت على ملامح وجهه القاسية وصدره العريض. بدت صورته من الجاذبية، بحيث شكّت في أن تفي كلمة نعم بالغرض. وما كان منها إلا أن أومأت برأسها، وأشاحت بوجهها قائلة: «شكـ. . . شكراً».

ـ لن يستغرق الأمر إلا دقيقة.

فتمتمت: «خذ وقتك».

من الأفضل أن يكون دواؤه الحلّ الشافي، وإلا ذهبت رباطة جأشها أدراج الرّياح بسبب المشاعر التي تدفعها إلى الارتماء في أحضانه. أهي فعلاً

بحاجة إلى هذا النوع من التجارب في الوقت الحالي؟.

حين عاد مارك أدراجه، كانت ميمي منهمكةً في عملها. بدا شعرها الأشقر مشعثاً، منسدلاً حتى كتفيها. كانت أشبه بفتاةٍ صغيرة قرّرت أن ترتدي قميص أبيها وجواربه. لكن مارك استدرك، ليست فتاةً صغيرة، أبداً. فنور الشمعة أظهر بغموضٍ تقاسيم جسد امرأةٍ، مغرية إلى حدّ العذاب!

وما لبث أن تنحنح ليعلن وصوله، ثم تقدّم منها وهو ينوي أن يتصرّف وفقاً للقواعد المهنية البحتة.

حين اقترب منها، أمسكت بطبقين واستدارت. قائلة: «ها قد جهزت الشطائر الموظ التي أمرتَ بها يا مسيو!».

لكن تعابيرها سرعان ما تجهمت حين رأت ما بيده: «ما هذا؟».

فرفعه قائلاً: «إنّها حقنةٌ وسيظهر مفعولها بوتيرةٍ أسرع».

كشرت، ثم تجاوزته لتضع الطبقين على الطاولة. لم يخفَ على مارك أنها حرصت على إبقاء مسافةٍ كافية بين المقعدين. ثم رآها تلتفتِ إليه وتقول: «ظننتك ستأتيني بحبةٍ يا دكتور!».

فرفع حاجبه علامة التحدّي وأجابها: «بما أنك من النسوة اللواتي يجبّرن أقدامهن المكسورة بأنفسهن، لن تضرّك إبرة بسيطة».

كشفت ذراعيها، وقالت: «لقد طعنتني بالإبر ما فيه الكفاية اليوم، ألم تسأم بعد من استخدامي كوسادةٍ للدبابيس؟».

ـ بلى، ولكني أحاول جاهداً مقاومة هذا الشعور.

ما إن تلفظ بهذه الكلمات حتّى تعجّب من نفسه، فمنذ متى يمزح في المسائل الطبية؟ حدّقت فيه بكآبة، قبل أن تفلت ذراعيها كارهةً، وترفع له كمّها قائلةً: «حسناً، استمتع بوقتك!».

كان معجباً بجرأتها. حين أمسك بيدها، سدّدت إليه نظرة وقحة، قبل أن تضيف: «أتكافئني بهذه الطريقة، وقد أعددت لك سندويشاً لذيذاً؟».

ـ ستصبحين أفضل حالاً. أخبرني، هل أنت حساسةٌ تجاه أيّ نوعٍ من

المسكّنات؟.

ـ الفراولة!

أحسّ برغبةٍ شديدة في الابتسام، لكنه استطاع السيطرة عليها، وأجابها:

ـ لحسن الحظ إنني لم أستعمل الفراولة كمسكّن!.

كشرت في وجهه، ثم سارعت تجيب: «أقلت مسكّن؟ إذاً، الجواب لا، على الأقل، هذا على حدّ علمي».

أشاح بنظره، وانهمك بتطهير مساحةٍ صغيرة في ذراعها، ثم سألها: «ماذا تسبّب لك الفراولة؟».

ـ موجةٌ عارمة من الحكاك الشّديد!

ـ هممم. . .

ضحكت، فحدّق فيها بارتباك، وسألها: «لمَ ضحكتِ؟».

فهزّت رأسها وأجابت: «لا شيء. لكنّك بدوت مثل الطّبيب الصّارم بهذا التّعليق. أيعلمونك هذا في مدرسة الطّب؟ أن تكتفوا بهذا التّعليق حين تجهلون الحل؟».

علت وجهه تكشيرة، قبل أن يتمالك أعصابه، ويصب اهتمامه على عمله، وعلى الحقنة المنتظرة.

ـ لكني أعرف الحلّ جيّداً يا آنسة بابتيست!.

ـ أحقاً؟ وما هو؟

ـ لا تأكلي الفراولة!.

قهقهت مجدداً، فأرسل صوتها قشعريرةً في بدنه. يا له من شعورٍ غريبٍ ومثير، شعور لم يختبره في حياته!.

حانت منه نظرة إلى وجهها. كانت عيناها مغمضتين، فقال: «ها قد انتهينا!».

فاختلست النظر إليه فيما هو يرفع الحقنة الفارغة، ويضيف: «لم تكن

التجربة صعبة، أليس كذلك؟».

ابتعدت عنه وسحبت كرسياً، وردت: «لكن، إيّاك أن تتّخذها عادةً، موافق؟».

ثم تهالكت على المقعد، وأشارت إلى السندويش: «هيّا، كل يا دكتور!».

حين رمى الحقنة، جلس قبالتها وألقى نظرةً على الطّعام: «قلتِ لحم الموظ، لا؟».

أسندت مرفقيها إلى الطّاولة، وأسندت ذقنها على راحتيها، ثم أجابت: «طبعاً، مع كيس كبير من الخبز!».

هنا، غمره الفضول ليعرف محتوى هذا السندويش فعلاً. فرفع قطعة الخبز العليا، ونظر إليها وهو عاجزٌ عن التصديق: «هل أعددت سندويشاً من السباغيتي الباردة؟».

فأومأت برأسها، ثم ابتسمت ابتسامةً ماكرة.

سألها: «كيف حال رأسك؟».

قزمت شفتيها، وغطّت وجهها بكفّيها بحركةٍ قوية وكأنّها تفكّر ملياً في الجواب. وبعد دقيقةٍ طويلة، همست: «جيّد جدّاً».

هذه المرّة، عندما حاول كبت ابتسامته، مني بهزيمةٍ نكراء!.

عرف أن ردة فعل الآنسة بابتيست على الدواء سريعةٌ وفعالة، فهتف: «هذا رائع!».

عادت ابتسامتها إلى طبيعتها وهي تقول: «اسمع يا دكتور. . .».

أجابها وهو يغطّي السباغيتي المجلدة بالخبز مجدّداً: «نعم؟».

عقدت حاجبيها بخفة، وهمست: «لا تقلق!».

مال إليها. كان صوتها يقارب الهمس. ولم يكن متأكداً إن خانه سمعه، فكرّر: «لا أقلق؟».

ـ أجل.

- على ماذا يا آنسة بابتيست؟.

فجأة، مالت إليه بدورها، وهي تضع كفّيها على المائدة. وما لبثت أن تابعت: «لن ألاحقك في أرجاء مكتبك!».

إنه بالطبع لا يسمعها جيّداً. فهتف مجدّداً:

- ماذا؟.

هنا، رفعت يدها إلى شفتيه، وأسكتته بإصبع منها: «أنت لطيفٌ جدّاً يا دكتور، لكنك لست الرّجل الذي أبحث عنه!».

نظر إليها بعينين ضيقتين قبل أن يرتمي في كرسيه غير مصدّق. لم يصدمه أنه ليس رجل أحلامها، بل وقاحتها التي أجفلته اجفالاً عظيماً. بدا واضحاً أنها لا تشعر بأيّ ألم. لكن المفارقة أن تصريحها الهامس آلمه هو في الصّميم، ليس لأنّه يودّ لو تلاحقه في المكتب، بل لأنّه فكّر مسبقاً في استلطاف متبادل بين الطّرفين. أخيراً، تكلّم: «أنا... أشكرك على صراحتك».

عادت تهمس: «فلنلخّص الواقع يا دكتور. لن أطيل البقاء هنا، وليس من هواياتي الانقضاض على الرّجال».

صرّ أسنانه. لقد خطرت له فعلاً مثل هذه الفكرة، أليس كذلك؟ فما كان منه إلا أن تقدّم، واستعدّ للتكلّم. وفجأة، لمح العبرات في عينيها، فتسمّر في مكانه وقد فغر فاه.

- أنت لا تحبّني يا دكتور.

لم تكن تطرح سؤالاً.

تنحنح فجأة وأجابها: «طبعاً... طبعاً أحبك يا آنسة بابتيست!».

وتابع في سره: لكني لا أريد أن أحبك، أودّ لو ترحلين فأرتاح!.

ثم أضاف على مسمعها: «وأعلمك، علّك ترتاحين، أنك لست المرأة التي أبحث عنها أيضاً».

مسحت أنفها بمنديلٍ، وقد بقيت ملامح وجهها غامضةً: «هذا رائعٌ يا

دكتور».

وما إن همست بهذه الكلمات حتى أحاطت طبقها بذراعيها، وألقت برأسها على شطيرتها. ثم عادت تتمتم: «رائع...».

سأل بنعومة: «آنسة بابتيست؟».

لكنّه لم يلقَ جواباً.

لقد غرقت في النوم. راح مارك يراقبها لدقيقة. كان شعرها يتلألأ في النور الخافت. أما يداها. فموضوعتان إلى جانب الشموع بهدوءٍ ورشاقة. لمّا وقع نظره على الحلية الصغيرة التي تشعّ حول معصمها الأيسر، استعاد ذكرى عينيها الجميلتين. وما لبث أن هزّ رأسه بذهول، ثم قام عن مقعده، وأطفأ الشّموع. ثم سار بثباتٍ، حتى اقترب منها، ثم حملها بين ذراعيه برفق بالغ.

أحسّ أنه يحمل ريشةً ملائكية. أما هي، فغرقت في ملاذ حضنه بدافعٍ غريزيّ، وبادلته الاحتضان التماساً للدّفء.

خانته شجاعته للحظةٍ، لكنه عاد وذكّر نفسه أنه طبيب أولاً وأخيراً، وأن ميمي حالياً مريضته، ولن تكون موظفةً إلاّ في الغد. ومن الأفضل أن يهمل أيّ شعورٍ بالحبّ قد تثيره في نفسه. فميمي بابتيست محقّةٌ في مسألةٍ واحدة، إنه ليس الرجل الذي تبحث عنه، وهي ليست المرأة التي ينتظرها!

وما لبث أن أطلق تنهيدةً طويلة، وحمل الغجرية الرشيقة إلى غرفتها. أخيراً، تمتم: «نعم، نحن محظوظان فعلاً».

في الصباح، كانت ميمي تحسّ بالانتعاش والراحة، وقد زال الصداع تماماً. بعد قليلٍ، جلست في سريرها، وهي تمدّد ذراعيها. لا تتذكر متى نامت آخر مرّة قَريرة العين هكذا. فجأةً، شعرت بوخزةٍ صغيرة، إذ أدركت مكانها في هذه اللّحظة.

تمتمت: «حسنٌ. أنا عبدة الطبيب النكد ابتداءً من اليوم».

تنهدت باستسلام، وقفزت من السرير، قائلة: «لن ينفع البكاء

على أطلال زورق!».

ثم لاحظت حقيبةً خضراء مألوفةً إلى جانب الباب، فتقدّمت نحوها، وقد غمرها الفضول، وراحت تفكّ الشرائط. وكم كانت دهشتها عظيمة، حين وجدت نفسها تحدّق في حاجيّاتها. كيف وصلت هذه الحقيبة إلى هنا؟ انتشلت قميصاً من القطن وسروالاً نظيفاً، ثم اندفعت إلى الحمام. وعندما انتهت، راحت تبحث عن مضيفها، السجّان الوحشيّ.

لم يطل بحثها طويلاً. كان يجلس إلى مائدة المطبخ، يرتشف كوباً من القهوة، وهو يطالع صحيفة الصّباح. وإلى جانبه، لمحت فوفو ملتفةً قرب الكرسيّ.

قالت في نفسها: يا لهذا المشهد العائلي اللّطيف! رجلٌ وكلبه الأليف!

ورفع رأسه، فوقع نظره عليها وحيّاها بأدب.

كانت تحيّته مُرضيةً، إنّما تفتقر للبسمة. غير أنها ردّت وهي تسير بتمهل: «صباح الخير يا دكتور، ماذا تودّ أن تفطر؟».

أعاد كوبه إلى الطاولة، وصحّح لها كلامها: «إنها الثانية بعد الظّهر يا آنسة بابتيست. أشكرك، ولكني أنهيت غدائي للتّو».

بدا كلامه أشبه بعاصفةٍ هزّتها، فحدّقت فيه بذهول: «الثانية؟ لا! لا يعقل!».

فما كان منه إلا أن ثنى صحيفته ووضعها أمامه، وأجابها: «لكنّها الثامنة في هاواي، إن كان هذا يخفف عنك».

ثم هبّ عن الكرسيّ، وتابع: «لقد أحضرت سوزان الغداء».

وأردف وهو يعيد ملأ كوبه: «طبقك في البرّاد، أترغبين في القهوة؟».

هزت رأسها من غير وعيٍ، ثم هتفت وتكشيرةٌ تعلو وجهها: «لكن كيف نمت حتى...؟».

وإذا بفكرةٍ تمرّ في خيالها: «إنه الدّواء الذي أعطيتني إيّاه، لقد غبت عن الوعي، كمن صدمته شحنةٌ كهربائية!».

لوى شفتيه قليلاً، قبل أن يجيبها: «النّعاس من أبرز عوارضه الجانبية».

ثم عاد إلى الطاولة، ووضع عليها كوب القهوة الساخنة، وتابع: «إنّما، بما أن اللّيل كان قد تجاوز منتصفه، ظننت أنك لن تمانعي».

اشتعلت فيها نار غضبٍ لم تعرف من ستحرق، ثم فتحت البراد باندفاع، ووقع نظرها على طبقٍ يعلوه غلافٌ محكم.

ـ أهذا الطبق المكسو بغلافٍ من البلاستيك؟.

ـ إن بدا لك أشبه بسلطة القريدس، فقد أصبتِ!.

حملته إلى المائدة، وجلست في مواجهته وسألته: «هل أحضرت سوزان هذا بنفسها؟».

فاستدار مارك ناحيتها، ثمّ فرد يديه على الطاولة وأجاب: «نعم».

أحسّت أن نظرته الثاقبة تخترقها وتبعث فيها الاضطراب. فما كان منها إلاّ أن شغلت نفسها بنزع الغلاف عن طبق السلطة.

ـ لطفٌ منها أن تعدّ لنا الغداء.

ـ لم تعدّه بنفسها، إنّما لطفٌ منها أن تحضره إلى هنا.

اختلست ميمي النّظر إليه حائرة.

ـ جرت العادة أن يحضره أحد العاملين في المطبخ، لكن سوزان لم تطق صبراً حتى تراك.

ثم ارتشف من فنجانه، وأردف: «إنّنا مدعوان على العشاء».

كلماته الأخيرة خلّفت فيها من الأثر ما دفعها إلى التوقف عن التهام قطعة القريدس.

ـ ماذا؟

ـ إلى العشاء. لا شك أنك سمعت به. إنه الوجبة التي تلي الغداء بعدّة ساعاتٍ!

عكس تعبير وجهها غضبها وقالت: «أفهم هذا التسلسل جيّداً. فحتّى أنا آكل من وقتٍ إلى آخر!».

تناولت لقمةً من السّلطة، وأضافت بعد أن بلعتها: «لكنني ظننت أنني هنا لأعمل. كيف عساي أن أفي بديني إن كنت تتركني أقضي نهاري في النوم، فيما تقوم سوزان بالعمل كلّه؟ ماذا يجدر بي أن أفعل؟».

ـ أخبرتك أنّ الأحد يوم عطلة، إلا إن طرأت حالةٌ مستعجلة. وبما أن سوزان دعتنا لتناول هذا العشاء، قبلت، متوقعاً أن تكوني جائعة.

حدّقت فيه بثباتٍ. صحيحٌ أن ملامحه خلت من المدح، لكنّه على الأقل، لم يكن يحملق فيها كعادته. بعد قليل، عادت تسأله: «ماذا عنيت بقولك إن «أحد العاملين في المطبخ» يحضره؟».

التوت شفتاه سخرية: «ظننت أن لغتك الأمّ هي الإنكليزية يا آنسة بابتيست! فأيّ كلمة لم تفهميها جيّداً؟».

مالت نحوه، وبادرت تجيبه: «اعلم أنني، إلى جانب الإنكليزية، أتكلّم أربع لغاتٍ بطلاقة. إحداها البانتو، وهي لغة الشعب السواحليّ ولغة تنزانيا الرسمية. كما أتكلّم الفرنسية والالمانية والاسبانية. فماذا عنك يا دكتور؟ كم لغة تجيد؟».

استرخى في مقعده وردّ عليها: «أتكلّم القليل من اللاتينية، عدا من الانكليزية. وجواباً عن سؤالك، إنه منزلٌ واسع».

لم تذكر ميمي أيّ سؤالٍ يقصد، فاستوضحت: «عمّا تتكلّم؟».

ـ عن المكان الذي تعيش فيه سوزان.

كانت قد تذكّرت سؤالها الآن، لكنّ حيرتها بعدُ لم تزُل.

ـ أتعيش في منزلٍ يحتاج إلى عشرين خادم؟ أهو فندق؟

أزاح خصلةً عن جبينه، ثمّ قال: «لم تريْ المنزل فوق التلة من قبل، أليس كذلك؟».

أجفلتها نبرة سؤاله، ورغم ذلك، ردّت: «كان الضّباب يخيّم على المكان حين سحبتني رغماً عني، فيما أنا أطلق الشكاوى والصّراخ، ألا

تذكر؟».

أحنى رأسه بإيماءةٍ عميقة، ثم انتصب واقفاً: «أذكر الضباب، إنّما بالنسبة إلى الشكوى والصّراخ، فلا أذكر شيئاً!».

ثم مشى نحوها ومدّ إليها يده بكل ثقةٍ، قائلاً: «تعالي!».

تأملت أنامله الطويلة لبضع لحظاتٍ، وقد راح قلبها يخفق، ثم استجمعت قواها وردّدت في سرّها أنّها لن تناوله يدها أبداً!.

ـ إنني آكل!.

وكتأكيدٍ على إعلانها، تذوقت لقمةً كبيرة.

فأخفض ذراعه وبدا أن الفكرة راقت له: «لن يستغرق الأمر إلا ثوانٍ يا آنسة بابتيست. أريدك فقط أن تنظري من الباب الأمامي».

وسرعان ما التفت بعيداً، وكأنه يتوقّع منها أن تلحق به. لكنها قرّرت أن تستمرّ في مكانها، وألا تنفذ رغبته. لذلك، التقطت قطعة فريدس أخرى بشوكتها وأكلتها.

أمّا هو، فناداها: «آنسة بابتيست؟ فهمت منك أنك لن تتخلصي من احتياجك العصبي حتّى تدفعي دينك! إن كان اللّحاق بي إلى الباب يفوق قدرتك، ما رأيك في أن تدفعي المال الذي تدينين به لي، وتمضي في سبيلك؟».

وهنا، علقت لقمة الفريدس في حلقها، فبدأت بالسعال. لقد ضرب على الوتر الحسّاس! ما بها تجلس على هذا العرش كما لو أنها ملكة عظيمة، وقد تبجحت للتو عن ضرورة العمل؟ لماذا ترفض أن تلحق به؟ ما هي مشكلتها؟

فلتهدأ! من الضروري أن تتحكّم بأعصابها!.

وتمتمت في سرها: ميمي! حدّدي أولويّاتك! تقدّمي وتجنبي لمسات الطّبيب، إنّما، نفذّي أوامره بحقّ الله، حتى تحصلي على بعض المال!.

توجّهت نحوه، ثم نادته أملاً أن تخفف دعابةٌ من حدة التوتّر: «هل طلبتني يا دكتور؟ لِمَ لم تقل ذلك بكلّ بساطة؟».

لمّا وصلت إلى حجرة الطّعام، رأيته يستند إلى المكتب بجانب الباب الأمامي. لمّا رآها، وقف، وهو يومىء برأسه بتكاسل: «شكراً، سأحاول أن أتذكر هذا في المرّة القادمة».

شرّع الباب، ثمّ أومأ لها كي تتقدّمه إلى الشّرفة. وحين بلغ الدرابزين، أشار إلى التل المرتفع في البعيد، وقال: «ها هو!».

لمحت ميمي قصراً بثلاثة طوابق من الحجر والخشب، لا يطلّ على المحيط الأطلسي فحسب، بل فيه بركةٌ مشعّة تسبح فيها طيور التّم.

نظرت حولها حيث الحدائق المخملية، وقد أزهرت فيها آلافٌ وآلافٌ من النباتات، وفاح عطرها في عصر هذا اليوم الجميل من حزيران.

وارتفعت في هذه الجنة الطبيعية، أشجارٌ عتيقة، تعانق السّحاب وتظلل الأرض بظلال رحبة.

أخيراً، أخذت نفساً عميقاً وقالت: «يا لها من أشجار جميلة!».

سرعان ما انتشلتها ضحكةٌ خافتة من الأفكار الواهمة التي سيطرت عليها. فاختلست النظر إلى الرجل الطويل الذي يقف إلى جانبها، ولمحت نظرةً مريبة على وجهه.

ـ شكراً، يا بنت الطبيعة، لكني كنت أدلّك على البيت.

طرفت عيناها، وقالت: «آه. . طبعاً. إنه جميل، أتعيش سوزان هناك؟».

أدار ظهره للمنظر الطبيعي، قائلاً: «يعيش هناك كل من سوزان وجاك وطفلهما، بالإضافة إلى أبينا جورج، وحوالى دزينتين من الخدم».

فكّرت ميمي في تصريحه ثم أومأت برأسها، وتجاوزت مارك بنظرها، لتتأمّل القصر خلفه، وسألته:

ـ أيعيش أخوك وأبوك هناك؟

ـ نعم.

ضاقت عيناها وهي تتابع: «وأنت لا تعيش هناك. حتى عائلتك نفسها لا تتحمّل شخصاً كثير التذمر مثلك يا دكتور».

وما لبثت أن هزت رأسها تأسفاً، مضيفة: «أراهن أنّك اضطررت لمتابعة دروسٍ في الأخلاق الحميدة والتصرفات اللائقة، قبل أن يسمحوا لك بتسلّم شهادتكَ!».

فقال وهو يحملق في وجهها: «لست كثير التذمر!».

فرنعت رأسها وأجابت: «أنت محق، وأنا لا أقف أمامك وأربعون قطبة في رأسي».

ـ بل ستّ.

ـ في الواقع بدت لي أربعين من جرّاء تذمرك.

ثم عادت تنظر إلى القصر قبل أن تضيف: «وهذا يثبت وجهة نظري».

فما كان منه إلاّ أن كرّر: «سلوكي غايةٌ في التهذيب يا آنسة بايتيست!».

ضحك بخفوتٍ، لكن السخرية هذه المرّة فاقت التّسلية في صوته.

ـ لم أتلقَّ في حياتي أي شكوى. أظنّك من يثير فيّ هذا الطبع السيء.

فحدّقت فيه بانزعاج، وقالت: «مشاعرنا متبادلة يا دكتور، لا سيّما وأن معظم الناس يمدحون لطافتي».

فأجاب وفي صوته توبيخٌ ساخر: «هذا على حدّ قولك! أما في معرض الإجابة عن سؤالك، فإنني أقيم هنا لأنه كوخ الطبيب. إنه أقرب إلى الميناء، وهو مقصد المرضى منذ خمسين سنة!».

فكّرت ملياً في كلامه، إنّما من دون اقتناع: «وماذا في ذلك؟ هذا لا يفسّر سبب سكنك هنا».

- أسكن هنا لأني الطبيب يا آنسة بابتيست!.

وجدت في ملاحظته تحبباً مقلقاً، لكنّها كبتت مشاعرها، وتابعت: «أعني أنه يمكنك السكن في المنزل الكبير، والمجيء إلى هنا أثناء ساعات العمل».

أومأ برأسه موافقاً: «هذا صحيح، ولكنّي أحبّ العيش هنا».

إنها نقطة جديدة يسجّلها الطبيب لصالحه! قد يكون وحشاً نكداً فعلاً، لكنّه ليس متكبراً. وما لبثت أن أجفلت. لمَ تنتقد هذا الرّجل بقسوة؟ لم يكن يهمّها مكان سكنه في الجزيرة، بل ما يزعجها حقاً أنه لا يفارق هذه الجزيرة قيد أنملة! وهذا هو الجانب السلبي الأوحد في طبعه. والآن، كفاها استسلاماً للأوهام والأحلام!

أخيراً، مدّدت ذراعيها فوق رأسها وهي تدّعي الملل: «إن وصلت الجولة إلى ختامها، فأودّ أن أعود إلى مائدة غدائي».

اكتفى بنظرةٍ سريعة من عينيه الضيقتين، ثم التفت إلى ساعته بمزيجٍ من السرعة والعنف. وقال:

- أمامنا أعمالٌ كثيرةٌ هذا العصر يا آنسة بابتيست. سأكون شاكراً لو أنهيت طعامك في غضون ربع ساعة.

صرّت على أسنانها. صحيحٌ أنّها تدين له بالمال، لكن، أمن الضروري أن يكون مستبداً لهذه الدرجة؟ قالت: «ظننت أن اليوم عطلة».

- لقد غيّرت رأيي. . . ماذا تنتظرين؟ أستأكلين أم لا؟

لازمت مكانها وهي تكافح رغبةً شديدة في دفعه عن الشرفة حتى يسقط على العشب. ثم زمجرت وهي تحاول أن تذكّر نفسها بمسألة الدين الذي ستقضي ثلاثة أسابيع لا متناهية في إيفائه.

- أنا ذاهبة! أرجو أن تظلّ حياً بعد كل هذا!.

- أقلت شيئاً يا آنسة بابتيست؟.

فانفجرت في وجهه: «الاسم ميمي يا دكتور. ميمي. ليس صعباً، بل

يتألّف من مجرّد كلمتين: الميم والياء! من المفترض أن يسهّل عليك ذلك حفظه. مي، مي! أفهمت؟».

كانت تنهيدتها من القوة بحيث خالها لعنةً فرفع حاجباً قاتماً، ثم قال بنعومة تبيّنت فيها حدّة خفيفة:

- واسمي مارك، لا دكتور ولا وحش ولا النكد السريع الغضب.

كان في نظرته الثاقبة من الاتّهام ما سمرّها في مكانها خجلةً. وبعد أن تململت لدقيقة، فتحت فاها علّها تقول كلمةً، لكن بلا جدوى. بدا لها أن دعوته بهذه الأسماء أشد سوءاً من نسيانه لاسمها الصّغير.

بما أنها لا تريد أن تجمع بينهما علاقةٌ ودودة، فما الضّير إذاً إن دعاها «آنسة بابتيست»؟ لا ضير بتاتاً! بل إنها الوسيلة الأفضل للتّعامل بينهما.

وهكذا، تمتمت أخيراً: «لقد أعدت التّفكير. ادعني الآنسة بابتيست، فهذا أكثر أماناً».

فردّد بشكٍّ: «أكثر أماناً؟».

أجفلت: «بالنسبة إليك طبعاً».

وراحت تتخبط في سعيها المضني إلى جوابٍ منطقيّ غير الحقيقة المرّة: «سأناديك. . . الطّبيب ميريت، فيما تناديني الآنسة بابتيست. وهكذا، تقل زلات لساني فلا أناديك «نكداً» أمام المرضى».

حمداً لله، كانت المصيبة وشيكة! وهي التي ظنّت أنّها فضحت نفسها بعفويتها!.

عكست نظرته استياء بالغاً: «هذا كرمٌ بالغ منك يا آنسة بابتيست».

ثم نظر إلى الساعة مجدّداً، كأمرٍ أخرس بالذهاب.

- حسناً، أنا ذاهبة. . . يا نكد.

وما إن همّت بالمسير، حتّى سدّدت إليه ابتسامةً وقحة، وقالت: «فلتكن هذه زوادتي للأيّام المقبلة، موافق؟».

فردّ عليها بالمثل: «بل قولي الطّبيب نكد».

رغم أن الانزعاجَ تجلّى في عينيه، إلا أن ثغره افترّ عن ابتسامةٍ قصيرة. هل حدث ذلك فعلاً؟ لقد تلاشت الابتسامة سريعاً عن وجهه، حتّى ظنّت ميمي أنها مجرّد خيالٍ انتظرته طويلاً طويلاً.

* * *

٤ ـ لست رجل أحلامي

لمّا دقّت الساعة الرابعة، كان مارك قد أطلع ميمي على عملية إدارة مكتبه. وما إن فرغ من ذلك حتّى أعلن أن البند التالي على جدول الأعمال هو نزهةٌ في أرجاء الجزيرة. وقال مضاعفاً مفاجأتها:

ـ ألديك حذاءٌ رياضيّ يا آنسة بابتيست؟.

في الواقع، لم تكن قد أعارت الحذاء اهتماماً عندما ارتدت ملابسها. فالسّير حافية يمنحها راحةً ما بعدها راحة. نظرت إلى رجليها وأجابت: «طبعاً لديّ، إنّما...».

ـ انتعليه!.

سدّدت إليه نظرةً متّسمة بالنكد والتذمر، ثم قالت: «يا للعسل الذي يقطر من لسانك، يا دكتور! كيف لي أن أرفض وفي سؤالك عذوبةٌ مسّتني في الصّميم؟».

ثم أشاحت وجهها، وتلفظت بكلماتٍ في لغة البانتو تثير الخجل في نفوس أكثر التنزانيّين وقاحةً.

فناداها: «لم أفهم ذلك تماماً، يا آنسة بابتيست».

بعد أن انتعلت ميمي حذاءها الرّياضي، استعدّا للتّوجه إلى الرّيف الأخضر. كانت فوفو تعدو إلى جانبهما، فراحت ميمي تراقبها، لا سيّما وأن الطبيب لم يكلّف نفسه عناء الترويح عنها أثناء سيرهما.

بين الفينة والأخرى، كانت تختلس النظر إلى الرّجل الصّامت الذي يرافقها. وفيما هما يعبران حدائق القصر، لم تستطع إلا أن تتفحص ملامح وجهه الصارمة، فأحسّت بقوةٍ متأصلةٍ في حنكه، وبمزيجٍ من العناد والإثارة مطبوع على وجهه.

فَجأةً، أخذت فوفو تنبح وقد رأت جندياً. فشكرت ميمي فرحاً بتشتيت انتباهها عن الطبيب، ثم تنحنحت، وقرّرت أن تغيّر أسلوبها:

ـ أتعرف يا دكتور؟ من المضحك فعلاً أن رجلاً فظاً ونكداً مثلك، أقصد حكيماً وشافياً طبعاً، يملك حيواناً صغيراً مرحاً كهذا. كنت أعتقد أنك من النوع الذي يقتني كلباً قوياً، أو ذئباً، أو كلباً استرالياً يلتهم الكلاب الصغيرة، وتسمّيه «الصّاعق»!.

رمقها بنظرةٍ واجمة، ثم قال: «أيعقل هذا؟ ألم تتخيّليني مع نمرٍ بأسنانٍ حادّة، يدعى كاسر؟».

فتصنّعت التركيز العميق، وكأن فكرته قيّمة للغاية، ثم أجابت: «لقد نسيت أمر الهررة البريّة!».

بعدئذٍ، أومأت برأسها، وتابعت: «بلى، بإمكاني أن أتخيّلك برفقة نمرٍ أو أسد، لا بل قطتين فارسيتين مفترستين أيضاً!».

ثم دست يديها في جيبيها، وسألت: «إذاً. لمَ اقتنيت هذا الحيوان الصغير؟».

ـ تركته لي مريضةٌ تدعى أنيتا لاندسبوري.

ولّد تصريحه موجةً من الدّهشة في ميمي: «تركته؟ أتعني في وصيّتها؟».

ـ ليس تماماً. كانت أنيتا بلا عائلةٍ، وقد طلبت منّي، قبل مدّةٍ قصيرة من وفاتها، أن أعتني بفوفو.

وبعد أن رمقها بنظرة قصيرة، أضاف: «فوافقت».

فكرت ميمي في كلامه للحظاتٍ، وما لبثت أن هزّت كتفيها لامبالاةً.

ـ كان باستطاعتك أن تعثر على منزلٍ لهذا الكلب، فالاعتناء به لا يعني أن تربط مصيره بمصيرك!.

كان في عينيه ما يشبه الشفقة، مما بعث فيها اضطراباً ما بعده اضطراب. أضاف وقد أشاح بوجهه بعيداً: «كان يعني ذلك بالنسبة لي يا آنسة بابتيست. ألم تربّي حيواناً أليفاً يوماً؟».

ـ بلى. فعلت طبعاً!.

نحدّق فيها بنظراتٍ خبيثةٍ وأردف: «لم يبدُ لي أنك تحبّين الحيوانات».

فراحت تدافع عن نفسها: «بل أعشقها! ألا تعلم أنني ناشطةٌ في سبيل حقوق الحيوان؟ بل أنا متطرفةٌ إلى أبعد حدودٍ. لكن السفر المتواصل يمنع المرء من الاحتفاظ بحيوانٍ. هذا كلّ ما في الأمر».

ـ إذاً، أنت تحبّين الحيوانات، إنّما لا تودّين أن تغدقي عليها مشاعرك!.

سدّدت إليه نظرةً متجهمةً، وأجابت: «ماذا تقصد؟».

هزّ رأسه: «لا شيء بتاتاً!».

ثم سألها ونظرةٌ فضولية في عينيه: «إذاً، أيّ نوعٍ من الحيوانات ربّيت؟».

كانت نظراته المشكّكة لا تزال تزعجها، ولكنّها تمتمت: «خفاشاً!».

سألها قاطعاً حبل أفكارها: «أقلتِ طيراً بريش؟ أيّ نوع هو؟».

ابتسمت بتكلّفٍ جرّاء خطئه هذا، وردّت: «إنه صقرٌ جارح!».

لمّا حملق فيها بحدّة، لم تستطع إلا أن تقهقه وتقول: «قلت لك خفاشاً يا دكتور!».

كان عدم تصديقه ردة فعلٍ كلاسيكية، كلاسيكية وجذّابة. اتّسعت عيناه البنيّتان المثيرتان فجأةً، وعلمت أنّ هذا الطبيب الصّارم صاحب الكلب الصغير قلّما التقى نساءً يتّخذن الخفافيش حيواناتٍ أليفة.

وما لبثت أن هزّت كتفيها وأضافت: «كان خفاشاً صغيراً وقع من أحد

ثقوب الجدران. لو أن أبي لم يحضره إلى المخيّم، ولو لم نطعمه حتى كبر، لماتَ بكلّ تأكيد».

توقّف مارك عن المسير فجأةً، وواجهها قائلاً: «هذه قصةٌ مليئة بالودّ والحنان يا آنسة بابتيست. شكراً جزيلاً لأنك رويتها لي!».

فما كان منها إلا أن اتّخذت موقفاً عدائياً من سخريته المرّة: «اسمع، من الواضح تماماً أننا لا نتّفق على أمورٍ كثيرة. أنت تحبّ العيش في منطقةٍ حيث الكل يعتمد عليك. أراهن أنك لم تفكّر في الإجازات لأنك تخاف أن يحتاجك مريضٌ أثناء غيابك».

ثم لكزته بخفةٍ في صدره، وأكملت باندفاع:

ـ لم أقضِ في أي مكانٍ فترةً تزيد عن شهورٍ قليلة. فالعالم بأجمعه موطني يا دكتور. أنا دائمة الترحال، أنشد دائماً هدفاً ما، تماماً كوالديّ. أريد أن أرى كل شيء، أن أخوض من التّجارب ما أمكنني. أستطيع أن أتخلّى عن أيّ شيءٍ في هذه الدنيا.

ثم رفعت الذّراع التي يزينها السوار وأردفت: «... عدا عن هذه الحلى، وصورةٍ تجمعني ووالديّ. فماذا لو لم أملك حيواناً أليفاً فعلاً؟ لكني عشت تجارب لن تعيشها أبداً، لن تفهمها أبداً. لقد خلقت أنت على هذه الصورة، وخلقت أنا على هذه الصّورة! أنت أسيرٌ في هذه الجزيرة، فيما نفسي تتوق إلى الرّحيل حتى أكاد أشعر بوخزٍ في رجليّ. فلنتفق على أننا لا نتفق أبداً، ولنحاول أن نتعايش ما أمكننا طيلة هذه الأسابيع الثلاثة، ما رأيك؟».

نقل نظره بين أصابعها ووجهها، ثم قال بصوتٍ عميق: «أملك مرهماً لشفاء ذلك».

فعبست وقد تملكتها الحيرة: «لشفاء ماذا؟».

ـ الوخز في رجليك.

ثم استدار متوجهاً نحو الطريق المتعرّجة، وتابع: «هل أنت آتيةٌ يا آنسة

بابتيست؟».

لكنّها صرخت: «لا أريد أن أشفي الوخز في رجليّ. ألم تسمع كلمةً ممّا قلت؟».

شعرت وكأنّه يستخفّ بها، ثم هتفت: «حقّاً؟ حسناً، هذا يناسبني تماماً!».

لم تعرف لِمَ جرحتها لامبالاته، لكنّها شعرت بألمٍ حاد. ألأنها نشأت بين والدين معروفين بل مشهورين في مجالات معيّنة؟.

حتى كانت صغيرة، غمرها أهلها بالكثير من الانتباه والرّعاية، لا سيّما وأنها نشأت في البريّة، مع مصورين بشهرة أندريه وريناتا بابتيست. لهذا، وجدت برودة الدكتور ميريت مهينةً، فهي لم تعتد أن يقلّل أحدٌ من شأنها، أو أن يعاملها بازدراء. فالخيارات التي تقوم بها في حياتها تماثل خياراته أهمية. لقد صرفت الأموال التي ورثتها عن أهلها، وتلك التي جنتها من وظائف غريبةٍ في سبيل قضايا نبيلةٍ، هذا عدا عن تأمين مصاريف أسفارها وحياتها اليومية طبعاً. فكيف يجرؤ هذا الانتهازي البغيض المشاكس على ألا يحفل بتاتاً؟!.

توجّه نحو منحدرٍ، وهو يقول: «يقع بيت الموظفين خلف الأشجار. ونحن، نستقبل العديد من السكارى والمشاغبين الجرحى ابتداءً من منتصف اللّيل تقريباً».

فأجابته وهي تحاول أن تبدو متجردةً مثله: «نعم يا دكتور ميريت.. كما تشاء يا دكتور ميريت».

نظر إليها بتجهم، وقال: «إني سعيدٌ لهذا التحسّن في سلوكك».

تحسّن! أغمضت عينيها وقد أعياها الغضب. إما أن هذا الرجل لا يدرك السخرية حين يسمعها، وإمّا أن حسّ دعابته غريب.

فليذهب إلى الجحيم! لن ينجو هذا الماكر المتعالي بفعلته! ستلقنه درساً!.

ثم نظرت إلى ظهره العريض، ولحقت به على طول المنحدر.

ـ أراهن يا دكتور أنك لم تواجه أروع تجربةٍ في حياة الإنسان، برأيي، في الغا. . . . آآه!.

وإذ بقدمها تزل، فتنزلق حتى يرتطم ظهرها بالأرض. أخذت تصرخ، وهي تسعى باهتياجٍ شديدٍ إلى وسيلةٍ للخلاص. كانت لترضى بأيِّ وسيلة، كانت صخرة ناتئةً أم جذور ناشئة! ما هي إلاّ خطوات قليلة وتسحق سحقاً.

فجأة، اصطدمت بجسم صلب، وبدافع غريزي، تعلّقت به بكلّ ما تملك من قوةٍ. لكنها، للأسف، جرّته معها نحو الأسفل، فراحت تصرخ حين بدت لها النهاية وشيكة مجدّداً. غير أن صراخها لم يدم إلا لثوانٍ، قبل أن يقع هذا الجسم فوقها، ليوقفها عند حدّها. حين اختنق صراخها في داخلها أخيراً، تناهت إليها شتيمةٌ خافتةٌ من قريبٍ.

بسرعةٍ، تفحصت جسمها، واكتشفت أنها نجت بأعجوبة، باستثناء رضّةٍ في ظهرها. وأخيراً، فتحت عينيها، فأكد لها بصرها حقيقةً أن ما اصطدمت به ليس شجرةً كما كانت ترجو، بل طبيبٌ شديد الاستياء. بدا ساخطاً فعلاً، فما كان منها إلا أن أجفلت، وسألته بصوتٍ ضعيفٍ مضطرب: «هل. . . هل أنتَ من أمسكتُ؟».

حدّق فيها، وكأنه لم يسمع مثل هذا السؤال السخيف في حياته، ثم سألها بدوره: «هل لديك أيّ مشكلةٍ مع يدي يا آنسة بابتيست ؟».

ـ أيّ يدٍ؟.

تحرّك قليلاً ليحرّر اليد العالقة بينهما، وثنى أصابعه، قبل أن يجيب: «كانت تشبه هذه تماماً، إنّما، من الجهة الأخرى، ومددتها لك لتمسكيها».

ابتلعت ريقها، وهي تشعر بحرارة جسمه القريب، فتمتمت من غير تفكيرٍ، في محاولةٍ منها للدفاع عن نفسها: «أعتقد. . . أن عينيّ كانتا مغلقتين. . . ولكنّك لم تكن ثابتاً، وإلا لما وقعت حين أمسكت برجلك!».

بدا وسيماً جداً في غضبه، حتى عجزت عن إظهار ردة فعلٍ قوية. أما هو، فهتف: «بل كنت ثابتاً، بحق الجحيم! إنّما لم أتوقع أن تخلّعي الرجل التي كنت أستند إليها».

وإذا بها تسمع ضحكةً مكبوتةً، لتدرك بذهولٍ أنها صدرت عنها. كان لا يزال ممدّداً فوقها، فكادت تنتابها نوبة هستيريا.

رفع حاجباً أسود وردّ: «أتظنين ذلك مضحكاً؟».

هزّت رأسها نفياً، وحاولت عبثاً أن تزم شفتيها لكنّ ضحكةً متمردةً أخرى أفلتت منها. عبس في وجهها، لكن تعابيره لم تكن عدائية هذه المرّة.

ـ هل أنت بخير؟.

فأومأت برأسها: «في ما خلا. . .».

لكن الحرارة اجتاحت وجهها حتّى عجزت عن المتابعة. راح قلبها يتخبط في خفقاتٍ غريبة مكتومة. أحسّت أن القوة الكامنة في عينيه البنيتين توقظ مشاعرها من سباتٍ عميق، ولم يعجبها هذا الاحساس مطلقاً. لم تشأ أن يتعلّق قلبها برجلٍ مقيّدٍ إلى جزيرة. لم تكن تريد لمشاعرها أن تتحرك من أجل رجلٍ لا تعني له شيئاً. إنّه فعلاً لا يحفل بها، ولا يمكن أن يحفل بها.

وما لبثت أن تنحنحت بجهدٍ، وهي تصطنع اللامبالاة.

ـ دكتور. . . أنت. . . ممدّدٌ فوقي.

يبدو أنه لم يكن غافلاً عن ذلك بدوره لا سيّما وأن تعابير وجهه بقيت مضطربة. فهمس بصوتٍ أجش:

ـ أعرف.

أحسّت بدوار يتملكها. وما إن سمعت همساته الهادئة حتى سرت فيها قشعريرة، وقبل أن تتحرّك أو أن تقوم بأي ردة فعلٍ، كان يعانقها، بمزيجٍ من الجوع والقسوة.

في عناقه، تذوقت ميمي ما يفوق الشغف الجامح جنوناً، كما لمست

مشاعر غضبٍ عنيف. الغضب! ما إن أدركت ذلك، حتى أخذت ترتجف من الصّدمة. لم يكن يريد لمشاعرهما أن ترى النور، كحالها تماماً! رغم ذلك، لازمهما ذلك الشعور الذي تحكّم بهما، حتى ولّد فيهما تأثراً عظيماً، فوقعا ضحية مشاعرهما الخاصة!.

لم يكن هو الرجل الذي تبحث عنه، ولم تكن هي المرأة التي تناسبه. كانت تلك الحقيقة المطلقة التي أدركاها، لكنّ سحراً خفياً جذبهما، بل أجبرهما على الانصياع كلٌّ لتأثير الآخر. لطالما خشيت تلك اللحظة، وقاومتها منذ اكتشفت أنّه طبيب. لكنّها واجهتها ببؤس من لا حول له ولا قوّة، فوقعت في الشّرك، ووقع معها. صرخت في سرّها: لا! لستِ بضحيةٍ يا ميمي بابتيست! بل أنت سيّدة قرارك، مصيرك. أنت امرأةٌ بلا قيود، وتعلمين في قرارة نفسك أن هذا الرّجل سيعميك، جسداً وروحاً، حتى تعجزي عن التحرّر من سلطته! أتودّين فعلاً أن ترحلي وتخلّفي قلبك في هذه الجزيرة؟ تعلمين أنك راحلة! بل عليك الرّحيل! لا تمنحي حبك إلا لرجلٍ كأبيك، رجلٍ يتوق إلى المغامرات، وفيه عطشٌ دائمٌ إلى آفاقٍ جديدة. انقذي نفسك يا ميمي، قبل فوات الأوان!.

وإذا بصوت يرتفع من أعماق أعماقها، وكأنّ ذرةً من التعقّل ما زالت تنبض فيها. حاولت أن تقاوم اغراءه، وحذّرها إنذارٌ في ذهنها من الاستسلام إلى فتنته السّاحرة. فاستجمعت ما استطاعت من قواها، ولجأت إلى ما تبقى في نفسها من شجاعةٍ. وأخيراً، هتفت وصوتها بالكاد يسمع: «توقّف، ابتعد عنّي».

حاولت أن تبعده عنها بذراعين ترتجفان كورقة خريفٍ، إنّما بلا جدوى. إلا أنّها واظبت على محاولتها، وهي تتحدّى جاذبيته بما تبقى لها من قوةٍ.

انتهى العناق تماماً كما بدأ، بسرعةٍ وفجائية. ابتعد مارك عنها، وجلس على الأرض. لم تكن ميمي متأكدةً، ولكنّها خالت أنها سمعت تذمراً

مكتوماً، هل كان غاضباً منها أم من نفسه؟ نظرت إليه وجفناها يطرفان. كان قد أدار ظهره لها وراح يمرّر يديه الاثنتين في شعره، ثم أحنى رأسه لبرهةٍ وكأنه يحاول أن يستعيد رباطة جأشه.

فجأةً، أحسّت ميمي بلمسةٍ باردةٍ على خدّها، فاستدارت لتجد الكلب وهو يتشمّمها. فأجفلت ثم أبعدت الحيوان عنها وهي تتذمّر: «لست ميتةً. . . فليبقَ أنفك البارد بعيداً عن وجهي».

تمتم مارك: «نعم، سأتذكر هذا المرة المقبلة».

رمته بنظرةٍ حذرة، وسارعت تجيب: «كنت أكلّم. . .».

ـ أعرف!.

وما لبث أن مدّ يده وتابع: «أقلّ ما يمكنني فعله هو مساعدتك».

تردّدت وبلعت ريقها. كان قلبها ما زال يختلج من تأثير عناقه، ولم تكن متأكدة من أنها ستجرؤ على لمسه مجدّداً بهذه السرعة. . .

وهكذا هزّت رأسها، ثم أسندت يديها إلى الأرض، ورفعت نفسها حتى كاد يختلّ توازنها.

ـ أتحتاجين إلى أيّ مساعدةٍ. . .؟.

ـ لا تلمسني!.

ابتعدت عنه، ومشت حتى كادت تتعثر مجدّداً. لكنها دسّت يديها في جيبيها بحدّة، ثم كلّمته من دون أن ترمقه بنظرة: «سر في المقدّمة وحسب».

أنبأها وقع حذائه الجلدي أنه بدأ يمشي بتثاقلٍ، لكنه توقف إلى جانبها بعد برهةٍ، وقال: «أنا آسف، كانت هذه حماقةً و. . .».

فقاطعته: «معك حق. انسَ الأمر، ولنتكلّم في موضوع آخر».

غير أنّه ظلّ واقفاً لعدّة ثوانٍ لم يتوقّف فيها قلبها عن الخفقان. ولم تشأ أن تحدّق فيه، وإلا لانفجرت بالبكاء! وما كان منها إلا أن عضّت على شفتها، لتمنع ارتجافها، وراحت ترمق فوفو وهي تقفز في أرجاء المكان.

ترى، هل كان يراقبها طيلة هذا الوقت؟ أخيراً أومأت برأسها نحو وجهتهما وقالت: «اذهب. . اذهب وحسب».

بعد برهةٍ، أمسى في مرمى نظرها، فأحسّت أن كلّ نَفَس تستنشقه أشبه بسكّينٍ يخترق صدرها. ولمّا أجبرت نفسها على العودة إلى الواقع، كان الثقل في قلبها قد اشتدّ، والجرح في أحاسيسها قد تعاظم، وفراغٌ لم تعهده من قبل يتحكّم بها.

وسرعان ما كتمت مشاعرها بغضبٍ. يا للسّخافة! كيف تتحكم بها مخيّلتها؟ ما بالها تحسّ بالفراغ والوحدة وهي صاحبة التاريخ الحافل بالمغامرات والأعمال الشيّقة؟.

ورفعت وجهها عالياً، وقرّرت أن تلحق به. لن تكون عبدةً جميلة لأي رجل! ولن تترك تصرفاً طائشاً واحداً يزرع الاضطراب في حياتها!.

ودّت لو تسلك طريقاً أقل خطورة لا تجد فيه أثراً. . . له.

لكن لحسن الحظ، شارفت الدرب على نهايتها، وما هي إلاّ خطوات حتى تنعم بأشعة الشمس الذهبية التي حجبتها أشجار الغابة.

أخيراً، تكلّمت بصوت أجش: «عمّا كنّا نتحدّث؟».

بدا أنه مستغرقٌ في التفكير. أخيراً، رفع رأسه وصرخ: «فلأذهب إلى الجحيم إن كنت أعلم!!».

لمّا سمعت نبرته الشّرسة، أجفلت، وردّت: «لا تصرخ في وجهي، فلست أنا من بادر إلى معانقتك!».

رفع رأسه بغتةً وكأنه لم يتوقّع أن تردّ عليه بالمثل. ثم التفت ليواجهها سادّاً عليها الطريق، على نحوٍ فاجأها تماماً. بدا قريباً إلى حدٍّ مقلقٍ، وعيناه تحملان نظرة اتهامية مثيرة للاضطراب.

ـ أنتِ. . .

وسكت فجأةً عن الكلام وهو يصرّ أسنانه. سافرت نظراته إلى البعيد، قبل أن تعود إليها مجدّداً مع شفتين مترددتين.

لم تعلم ماذا أراد أن يقول، ولكن بدا واضحاً أنه عاجزٌ عن التّعبير بالكلمات. ولم يكن أمامها إلا أن تأمل أن ينسى أنها بادلته العناق بدورها.

إنما هذا لا ينفي أنه هو من بدأ العناق، وأنه يتحمّل المسؤولية الكاملة!.

أطلق أنيناً خافتاً وهزّ رأسه. واستعدّ ليتابع المسير، لكنه توقّف فجأةً، وقد كسا الاضطراب ملامح وجهه. أحستْ ميمي بالتّوتر الحادّ بينهما، وتململت بصعوبة. كان كلاهما غاضبٌ، كلٌّ مثقل بالذنب والقلق، بعد أن فقد السيطرة على أعصابه.

بعد وقتٍ طويلٍ، قال بصوتٍ خلا من أي تعبير: «أظن. . . . أنك كنت تخبرينني عن أروع تجربةٍ في حياة الإنسان».

ثم كتّف يديه بلامبالاةٍ وأضاف: «إذاً، يا آنسة بابتيست، قصّي عليّ أروع التّجارب التي مرّت في حياتك».

لم تعرف لماذا أحسّت أن دموعها ستنهمر، لكنّها سحقت هذا الشعور في قلبها. يا لسخرية القدر! ها قد أضحت أروع تجاربها عناق طبيب شتّان ما بينها وبينه! كيف يمكن لشعورٍ بدا، منذ دقائق وجيزةٍ فقط، غالياً على قلبها أن يمسي، بلمح البصر، سخيفاً، وزائلاً وعاديّاً؟.

بلعت ريقها بصعوبة، في محاولةٍ منها للسيطرة على أعصابها. وما لبثت أن أومأت: «تذكّرت. كنت أقول إني أراهن أنك لم تواجه ما اعتقدت. . . ما أعتقد أنه أروع تجربةٍ في حياة الإنسان».

ثم فركت عينها بيدٍ مرتجفة، وهي ترجو أن يبدو الأمر كأنها تزيح خصلةً عن وجهها، لا كأنها تمسح دمعةً.

ـ في الواقع، أنا. . . كانت التجربة. . . إن التجربة تتلخص في نزهةٍ عبر الغابة. . .

حمدت الله أنّ صوتها بدا طبيعياً، رغم العذاب الّذي يحرق أحشاءها.

صحيحٌ أن كلماتها لا أساس لها من الصحة، ولكنّها تابعت: «تخيّل أنك تسير وسط سكونٍ إلهي. النزهة في هذه الطبيعة البدائية الخلاّبة، هي، لا

شك أروع تجربةٍ في الحياة».

وما لبثت أن أخذت نفساً مرتجفاً، وهي تجبر نفسها على ملاقاة نظراته. وإذا بوميضٍ من السخرية يجتاح عينيه تدريجياً، ثم قال ببطء: «كلا، أنت مخطئةٌ يا آنسة بابتيست».

مضى وقت قبل أن تستوعب ميمي المعاني التي يخفيها في طيّات كلامه.

***

٥ ـ ارحلي يا آنسة!

لم يصدّق مارك ما أقدم عليه في الغابة ذلك العصر. لقد عانق ميمي بابتيست! لا، إن العناق كلمةٌ تافهة لوصف ما حدث بينهما. بعد كلّ العظات التي ردّدها على نفسه، وبعد التّحذيرات من مغبة التورط مع رحالةٍ مشاكسة، ها هو يعانقها. صحيحٌ أنه لم يخطّط لهذه الخطوة، إلا أن ذلك لا ينفي أن تهوره مرعبٌ حقاً. ما الذي تملّكه؟.

كان السّؤال من السخافة ما أجفله، فالجواب محفورٌ تماماً في ذهنه. لقد بات أسير عينين رماديتين، وشفتين توبخانه بابتساماتٍ ماكرةٍ، كلّ ذلك يجذبه إليها ويغويه. وفجأةً، رماه القدر فوقها، ففقد زمام الأمور، فقد فعلاً، وبكلّ بساطة، زمام الأمور.

لقد استغرق في عمله السنين الماضية كلّها، حتّى انصرف عن الحياةِ الاجتماعية. وما زال على هذه الحال حتّى اليوم. محالٌ أن يحصي كم من مرةٍ نبّهه زملاؤه إلى ضرورة تقديم التنازلات عند مواعدته امرأةً.

لا شكّ أنه كبت حتّى اليوم من المشاعر ما يهدّد بالانفجار. لقد صدّ الممرّضة أورسولا لأسابيع. ومن سوء حظّ ميمي أنها تواجدت في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب.

تذمر في نفسه: واجه الأمر يا ميريت! أنت ترغب في هذه المرأة، وإن لم تتمالك نفسك، فستنجرف إلى ما تندم عليه لاحقاً.

www.romancia.com

إلى أيّ مدى سيؤثر فيه الإعجاب الذي يكنّه لفراشةٍ متنقلة؟ إنه يملك الجواب. ما زالت ذكرى عناقهما تبعث فيه نوبات مشاعر مجنونة. كانت رائحتها أشبه برائحة الطبيعة بعد أن يغسلها المطر، أو عطر ليلةٍ صيفية في سهلٍ أفريقي.

ـ مارك!.

سمع اسمه فعاد إلى الواقع وكأنه سقط من السماء. التفت حوله، ليجد الجميع يحدّق فيه. لقد فاته فعلاً أنه في القصر يستمتع بعشاءٍ عائليّ لطيف، كما استمتع، على الرغم منه، بوجه ميمي المفعم بالنّشاط فيما هي تجلس قبالته إلى المائدة. تعمدت تجاهله طيلة الأمسية وكأنها تسعى للثأر، مع العلم أنها تبادلت أطراف الحديث مع جايك وجورج وسوزان وتأملت كايل طويلاً وهو يلعب بسعادةٍ في حضن أمّه، ويلّوح بيديه الصغيرتين.

لمّا ألقى نظرةً على الأطباق، أدرك أن العشاء أشرف على النهاية. أيعقل أنه انجرف مع أفكاره إلى هذا الحدّ؟

ـ عد إلى اللّعبة يا ميريت!.

سأل، من غير أن يكلّم شخصاً بالتحديد: «ماذا؟».

ضحك الرّجل الجالس على رأس الطاولة، وقال: «ما بالك يا أخي الصّغير؟ أفقدت سمعك؟».

واجه مارك جايك بملامح أرادها لامبالية، ثم كذب وهو يصرف النّظر عن أفكاره السّخيفة: «أنا آسفٌ، كنت أفكّر في. . . حالةٍ مرضية».

وما لبث أن مال نحو أخيه، وهو يوليه كامل اهتمامه، ثم قال: «ماذا كنت تقول؟».

ـ كنت أقول إنني سمعت أنك تخطف مساعداتك في هذه الأيّام.

وغمز ميمي، فلاحظ مارك أنها أجابته بابتسامةٍ ساحرة لا تمت بصلة إلى أحاديثها معه.

وتابع جايك: «يمكنني أن أجزم، من خلال الدليل على رأسها، أنك

لجأت إلى العنف. . مع أنني لا أحبّذُ أسلوبك، لكن اسمح لي أن أهنئك على ذوقك الرّفيع».

قهقهت ميمي، ووجّهت إلى جايك ابتسامةً مبتهجة: «شكراً يا جايك. يسرّني أن أحد رجال ميريت لا يستقوي على النساء الأضعف منه».

ثم حدّقت في مارك لبرهةٍ بالحنق نفسه الذي أبدته منذ عناقها. بعدئذٍ، حوّلت انتباهها إلى جايك مجدّداً، وتابعت: «لكن لقاءك أنت وسوزان وجورج، بالإضافة إلى الطفل عوّض حظي العاثر».

هذه المرّة، كانت النّظرة التي سددتها إلى مارك قصيرةً جداً، حتّى خال أنها من نسج خياله وحسب، لولا أنه شعر بلسعتها الحادّة.

استرخى في مقعده، ثم كتّف ذراعيه، وقال وهو يجبر نفسه على النظر إلى أخيه: «صدّقني يا جايك، إني أكفّر عن جريمتي. فنادراً ما ألتقي بأنثى بهذا الغضب وهذه الثرثرة».

حين تلاقت عيونهما، ابتسم ابتسامةً عريضة وهو يراها تحمر بمهانةٍ.

قهقهت سوزان، ثم حملت كايل وراحت تربتّ على ظهره، قبل أن تقول:

ـ كلّ ذلك ممتعٌ يا شباب، لكن ابني بحاجة إلى بعض الرعاية في قسم الحفاضات.

حوّل مارك نظره إلى جايك الّذي وقف قائلاً: «دعيني أقوم بذلك عنك يا عزيزتي».

التفت مارك إلى ميمي على الرغم منه، فنقلت بصرها إلى حيث يجلس جورج. كان ميريت الأكبر، المتجهم دائماً، مستغرقاً في مراقبة جايك وهو يحمل حفيده.

ويذكر مارك أن أصدقاءه وأعداءه، على حدٍّ سواء، اتفقوا على أن ولديّ ميريت ورثا وسامة أبيهما وطبيعة أمّهما الودودة. إنّما، هل توافقهم ميمي بابتيست الرأي؟ ضحك مارك بخفوت، غير أنه نجح في اخفاء

ضحكته بسعال.

حين تأمّل والده، صدم بالرقة التي ارتسمت على ملامحه الصارمة المستبدة. فمنذ وفد المولود الجديد، كايل، إلى حياتهم قبل أربعة أشهر، وحال هذا الرجل العجوز تتغيّر.

توجهت ميمي بالحديث إلى جورج: «جورج، أخبرتني سوزان أنك تلعب الشطرنج».

حوّل ميريت العجوز اهتمامه إلى الضّيفة، وهو يحملق فيها: «نعم. لمَ تسألين؟ هل تحبّين اللّعبة؟».

ابتسمت ميمي: «بل أنا مهووسةٌ بها. كنت أقضي ساعات الليل في ممارسة هذه اللّعبة على ضوء المصباح».

أعجب مارك بالخجل الذي اجتاح محيّاها، وسمعها تضيف: «لن أكون لاعبة شطرنج محترفة. لكن، إن كنت تستمتع باللّعبة، فأودّ أن ألعب».

هتف سوزان ومارك في آنٍ: «إن كان يستمتع . . .».

ثم انفجرا بالضحك، فيما تابع مارك: «إن أبي، يا آنسة بابتيست، لا يستمتع باللّعبة وحسب، بل إن الشطرنج تسري في دمه. إن وافقت على منازلته، فمن الأفضل أن تتحلّي بالشجاعة».

راح يراقبها وهو يلوي فمه بتحدٍّ واضح، ثم أردف: «ومن الأفضل أن تكوني لاعبةً ماهرة، وإلاّ التهمك حيّةً».

التفتت ميمي إلى سوزان وسألتها: «التهمني؟».

غير أن جورج قطع الحديث، وهو يصرخ: «إنّها مجرّد أكاذيب، أكاذيب خسيسة!».

ربّت على يدها، قبل أن يضيف: «لست إلاّ شخص يهوى الشطرنج ويأمل أن يجد، في يومٍ من الأيّام، شخصاً آخر، لينغمسا في لعبةٍ ممتعة بعد العشاء».

ثم رفع ذقنه وحدّق في مارك: «وأنت. . توقّف عن مضايقتها. لقد

آذيتها ما يكفي!».

هزّ مارك رأسه وهو يسمع كلام أبيه: «أدخلي عرين أبي بمحض إرادتك وعلى مسؤوليتك يا آنسة بابتيست».

وأضافت سوزان: «واعتمري قبعةً سميكة!».

ثم قهقهت وهي ترى النظرة الصارمة التي سدّدها إليها حموها، أخيراً، رفعت يديها علامة الاستسلام.

ـ حسنٌ، حسنٌ يا جورج، لن أنبس ببنت شفة.

ـ عمّا؟

كان هذا صوت جايك وهو يعود إلى الغرفة مع كايل.

ـ عن والدك، وسلوكه الرديء حين يتعلّق الأمر بالشطرنج.

انحنى جايك ليضع كايل في ملعبه الصّغير، لكنه تسمّر في مكانه فجأةً ثم اختلس النظر إليهم بريبٍ واضح.

ـ لا تقولوا إن الملك جرّ ميمي إلى منازلته في اللّعب!.

ثم نظر جايك إلى الضّيفة الشقراء، وأضاف: «آمل على الأقل أنك لم تعرضي اللّعب بنفسك!».

حدّقت ميمي في وجوههم الواحد تلو الآخر، ثم سدّدت إليهم نظرةً وقحة فيها من السحر ما أرسل القشعريرة في جسد مارك. ولم يكن منها إلاّ أن وقفت، ثم أخذت يد جورج.

راحت تلاطفه: «هيّا يا جورج، فلنتخلص من هؤلاء المملّين، ولنستمتع بوقتنا».

استقام ميريت العجوز، وقدّم ذراعه لميمي بشهامةٍ مسرحية.

همس في أذنها بضع كلمات، فهقهت لها ميمي. وظلّ صوتها يتردّد في ذهن مارك حتى بعد اغلاق الباب بوقتٍ طويل.

ـ مارك!.

عاد إلى أرض الواقع، والغضب يتآكله. كيف انجرف وراء ميمي

بابتيست، كمراهق يلوّعه الحب الأول؟ وما لبث أن تنحنح وهدأ من روعه.

كانت سوزان تقف إلى جانب كرسيّه، والقلق بادٍ على وجهها. أما جايك، فجلس على المقاعد الوثيرة، وراح ينظر إلى أخيه الصغير، وكأنه يراه للمرّة الأولى في حياته.

ثمّ سأله بحذر: «ما بك اللّيلة؟ هل هذا بسبب «الآنسة بابتيست»؟».

كان تشديده على اسم شهرتها معبّراً. ما معنى أن يربط جايك حالته بالآنسة الشقراء؟ اللّعنة على حدس أخيه!

ردّ بعنفٍ شديد: «كلاّ، لا علاقة للآنسة بابتيست بالأمر!».

فمدّت سوزان يدها إليه: «تعالَ وانضمّ إلى العائلة».

حين لم يستجب لها فوراً، قبضت على يده وسحبته قائلةً: «نادراً ما تمنّ علينا بزيارةٍ طويلة يا مارك. فهيّا، اجلس معنا».

لمّا سمع سوزان تلاطفه، عرف أنه من السخافة أن يبقى جالساً إلى المائدة. فعلى كلّ حال، إن فرصة زيارة أخيه وزوجته لا تسنح له غالباً. وإنها لمضيعةٌ للوقت أن يسمح لافتتانٍ تافهٍ وخاطف أن يسرق منه سعادته بهذا الجمع اللطيف.

حين مرّ بكايل، انحنى فوق ملعبه الصغير ليرى ابن أخيه. أحسّ أنّ منظر الطفل يمسّه في الصّميم، بل يوقظ حاجةً في قلبه هي ما دفعته إلى مغادرة بوسطن وهجر مهنةٍ مربحة، ليعود إلى جزيرة ميريت. كان يأمل أن يجد امرأة تشاركه حياةً بسيطةً هادئة، وتمنحه أطفالاً وتقدّر روح الانتماء والشوق فيه. صحيحٌ أنه لم يجد ضالته بعد، لكنّ ذلك لا يعني أنه لن يعثر عليها.

أحسّ بيدٍ تربت على كتفه برفقٍ فعرف أن سوزان انحنت بدورها، لتتأمل طفلها. ثم تمتمتٍ: «إنه أشبه بحلمٍ يبصر النور... لنجلس ونتحدّث فيما كايل يتصرّف كطفلٍ عاقل».

جلس مارك في مقعدٍ وثيرٍ، فيما جلست سوزان إلى جانب جايك على

الأريكة. ظلّ جايك ينظر إلى أخيه بفضولٍ. وأخيراً، قال له: «لم تجب عن سؤالي بعد».

تذكّر مارك السؤال، غير أنّه وجه إلى أخيه نظرة تحذير، ثم رفع رأسه وتمتم وهو مصمم على تغيير الموضوع: «كان الأسبوع طويلاً».

لكن سوزان سألته: «إذاً لمَ لم تدعوها الآنسة بابتيست؟».

عبس في وجه المزعجين الدّائمين، ثم حملق فيهما بتذمر. كانت ابتسامة جايك لاذعة، أما سوزان، فتجلّى في عينيها الفضول بوضوح.

فزمجر قائلاً: «اصمت يا أخي الكبير!».

ضحك جايك: «يا إلهي! لقد اصطادتك ووقعت في شباكها بكلّ سهولة! من كان ليتوقّع ذلك؟».

اختلست سوزان النّظر أوّلاً إلى زوجها الذي يكتم ضحكاته، ثم حوّلت عينيها إلى مارك، فإلى جايك مجدّداً. وأخيراً، هتفت: «هل تتواصلان بلغةٍ سرية أخوية؟ لقد ضعت فعلاً!».

فسّر لها جايك: «لقد وقع مارك في الغرام!».

كانت ملاحظته تقارب الهمس، لكنّ مارك سمعها وكأنّها دوي مدفعٍ، فوثب على قدميه، وصرخ: «أنت مجنونٌ!».

استشاط غضباً، لا لأنّ جايك فكّر في شيءٍ بهذه السخافة فحسب، بل لأنّه جاهر به أمام زوجته أيضاً.

لكن جايك أمال رأسه ليبتسم لمارك، ولم يبدُ عليه الانزعاج من كلام أخيه. وما لبث أن هتف:

ـ أنت مغرمٌ بميمي بابتيست، ولا تريد أن تغرم بها في الوقت نفسه. أليس كذلك؟.

صرّ أسنانه، وأجاب: «لست مغرماً بها، ولكنك محقٌ في شيء. فأنا لا أريد أن أغرم بها!».

تدخلت سوزان: «ولمَ لا؟ أظنّ أنها فاتنة».

ردّد مارك بازدراء: «فاتنة؟ إنها امرأة بوهيمية! تعتقد أن العيش في مكانٍ واحد أشبه بخطيئةٍ، وأن كلّ من يجرؤ على إثم كهذا ملعونٌ. إنّ جنون جايك لا يذكر بالمقارنة مع ميمي. لو كان للجنون مملكة، لنصّبت عليها ملكة!».

وتحوّل التعبير المرتبك على وجه سوزان إلى ابتسامةٍ رقيقة: «يا إلهي! أمثل هذا الشغف يصدر عن طبيبٍ بارد الأعصاب».

ثم التفتت إلى زوجها وأضافت: «أتعرف يا حبيبي؟ أظن أنك محقّ. إن مارك مفتونٌ بامرأةٍ فريدة من نوعها، وهذا ضدّ ميله الفطري».

ثم واجهت سلفها وقالت: «يا لمارك المسكين! لقد أراد ربةَ منزلٍ هادئة الطباع، فحظي بامرأةٍ مثيرة غريبة الأطوار!».

ـ لم أحظَ... لم أحظ بها، ولا أرغب فيها! أهذا واضحٌ؟

أجاب جايك وهو يرفع حاجبه بسخرية: «نعم.. هذا واضح بالنسبة لي. ماذا عنك يا سوزان؟».

أومأت برأسها، من غير أن تتوقّف عن الابتسام لمارك: «طبعاً. أنت لا ترغب فيها. وأذكر تماماً أنك كنت تكنّ المشاعر نفسها لأورسولا».

أجاب مارك بالموافقة، رغم أنه أحسّ أن كلامها لم ينته بعد.

ـ إنما كنت تدعو أورسولا باسمها.

شعر مارك بسحابةٍ كئيبة تمرّ أمام عينيه. فصرخ في وجه هذا الاحساس الغامض الّذي يخترق سلامة ذهنه: «لا!».

ثم عضّ على شفته، وهو يحاول أن يقنعهما بفكرة لم يكن مقتنعاً بها هو نفسه: «إني لا أشعر بأي انجذابٍ تجاه ميمي بابتيست. إن الفكرة مجنونة، بل مثيرة للضحك. فعلى المرأة الجديرة بحبّي أن تكون متّزنة، وهي، في اتّزانها تشبه... القنبلة الموقوتة!».

ـ قنبلة إذاً؟

وجّه مارك نظرةً قلقة إلى الباب الذي يؤدّي إلى الحجرة المجاورة،

فاعتراه الغضب حين رأى ميمي على عتبته. فجأةً، بدا له أن الأصوات قد خفتت، حتى النسيم توقّف عن الهبوب.

كان النّور الذهبي المتسلل من المصباح يضيء وجهها. وجهٌ لا يمكن لمارك أن يصفه إلاّ بالمهلك. وبعد دقيقةٍ من التوتّر، أشاحت بوجهها عنه واتّجهت إلى مائدة الطّعام، قائلة: «لقد نسي جورج نظاراته».

بعد أن التقطتها، سارت حتّى توقّفت أمام مارك، وسدّدت إليه نظرةً مميتة: «لمعلوماتك يا دكتور ميريت، لن أقبل برجلٍ ثقيلٍ، نكدٍ مثلك وإن قدّموك لي على طبقٍ من فضّة».

ثم التفتت نحو سوزان وجايك، وتابعت بصوتٍ جاهدت لضبطه: «شكراً على العشاء. كان رائعاً...».

ثم رمقت مارك بنظرةٍ سريعة، قبل أن تضيف: «في أغلب الأحيان».

حين رحلت، ارتفعت ضحكة جايك الخافتة تدريجاً حتى خرقت الصّمت المخيّم.

عبس مارك في وجه أخيه، ثم صرخ: «ما المضحك بحقّ الجحيم؟».

ضمّ جايك سوزان إليه، وأجاب: «يبدو أنّنا وجدنا المغناطيس الجاذب. بعبارةٍ أخرى، ميمي ومارك، أم أقول الفاتنة والشرس؟».

ردّ مارك: «يا لظرفك! ربّما يستحسن بك أن تنتقل بمسرحيتك إلى فيغاس. والآن!».

رفع جايك يده، ثم أشار إلى الباب الّذي اختفت خلفه الشقراء، وقال: «مهما كان ما اقترفته في حقّها، فقد نفذته بدهاء لاذع. إنها تستشيط منك غضباً بكلّ ما في الكلمة من معنى».

ثم لوى شفتيه ساخراً، وأضاف: «ستكون هذه الأسابيع الثلاث ممتعة».

زمجر مارك قائلاً: «نعم، تماماً كالمرض».

ثم وضع يديه في جيبه وتوجّه نحو الحديقة، وقال لجايك: «إن لم يكن

ذلك بثقل برنامج الآنسة بابتيست الاجتماعي، قل لها إن عليها الاستيقاظ عند الخامسة».

كان اليوم الأوّل الذي أمضته ميمي كمساعدة مارك، طويلاً، متعباً ومفيداً في الوقت نفسه. وفد إلى العيادة العديد من المرضى، وأصبحت تعرف أن هذه الكتلة البحرية تدعى «جزيرة ميريت»، وهذا ما أهمل الدكتور ذكره. وبعد مدّةٍ ليست بقصيرة، سمعت أحد المرضى يتحدّث عن منجمٍ، واكتشفت أن في الجزيرة منجم زمردٍ.

يبدو أن مارك ميريت يملك ثروةً طائلة! وهذا تفصيلٌ آخر لم يذكره أو ربّما لم يحفل به. لم تكن ميمي قد التقت ميليارديراً في حياتها. لذا، فاجأها هذا الخبر تماماً، ووجدت نفسها تتساءل لمَ يكلّف نفسه عناء العمل، لا سيّما بهذه الوتيرة القاسية والمجهدة؟

وفي نهاية نهارها، كان التعب والجوع قد أخذا منها مأخذاً عظيماً، لكن ما زال عليها إعداد العشاء. كان مارك قد استحمّ، وارتدى سروال جينز وكنزةً خضراء، رفع كمّيها حتّى مرفقيه.

حين رأته بعد حين في المطبخ، منهمكاً في تقطيع الخضرة، تجاهلها قدر الإمكان. وظلّ طيلة الوقت يلقي الأوامر عليها.

لم تعمل في حياتها بهذا الجهد، كما زاد من تعبها أنها لم تأخذ قسطاً من الراحة بعد. فمنذ منتصف اللّيلة الماضية وحتى الثانية صباحاً وهما مكبّان على معالجة الجروح والكدمات ومداواة مدمني الكحول. ثم استيقظا عند الخامسة، فأعدّا فطوراً سريعاً، قبل أن يبدأ المرضى بالتوافد. ومنذ ذلك الحين، لم تتوقف للراحة، أو لتناول لقمة من الطعام! ظلّت على هذه الحال، حتّى خرج المريض الأخير من العيادة.

اقتربت منه قليلاً حتى لمحت جانب وجهه. بدا لها أن التعب لم يرهقه كما أرهقها. كيف يتعب وهو يلعب دور الطّبيب الشافي لستة أيّام في الأسبوع. أيعقل هذا؟

راحت تراقب مضيفها على غير علم منه. بدا مستغرقاً في التفكير. كان عليها أن تعترف أنه فعلاً ناجحٌ في حياته المهنية. فطيلة النهار، واظب على توزيع الابتسامات على المرضى، كل المرضى... ما عداها. ولو أنها لم تشاهده بأمّ عينها، لما صدّقت أنه مفطور على حبّ الخير للناس. فالكلّ يحبّه، حتى موظفي الجزيرة، وزملائه من الجزر المجاورة.

حدّقت في الطبيب الوسيم الطويل القامة، وقد اكتفت من مناداته «الطبيب ميريت» بلباقةٍ منذ اثنتي عشرة ساعةٍ خلت.

ـ اسمع يا دكتور... ما كان تشخيصك للمرأة الأخيرة التي جاءت في هذا العصر؟.

بدا للحظةٍ أنه مستغرقٌ في التفكير، قبل أن يلتفت ناحيتها ويسأل: «أيّ امرأةٍ؟».

نظراً لندرة الإناث في جزيرة ميريت والجزر المحيطة، لم تزر العيادة في ذلك اليوم إلا ثلاث نساء. غير أنها حافظت على رباطة جأشها، ثم قالت: «تلك التي كانت ترتدي سترةً صفراء وتنّورة جلدية سوداء. لا شك أنك تذكرها... تلك التي اشتكت ألماً في حنجرتها».

أومأ برأسه، ثم عاد إلى تقطيع الخضراوات وهو يتمتم: «تقصدين مادلين!».

صرّت أسنانها، وقد سمعته يستخدم اسمها الأول، ثم أجابت: «أيّ كان اسمها! إذاً ما كان تشخيصك؟».

رماها بنظرةٍ سريعة متأملة، وردّ: «ألا يعتبر ذلك سرّاً من أسرار المهنة بين الطبيب والمريض؟».

هزّت كتفيها استهجاناً ثمّ أولت الدّجاج اهتمامها، وتعابير وجهها متجهمة: «كل ما في الأمر أنني لم أجد ما يستوجب انتقالها بالزورق، كي تفحص حنجرتها لا غير».

لمّا حافظ على صمته، اختلست إليه النّظر وأضافت: «ترى، ما هي

القاعدة التي يتبعها الطبيب والمريض بشأن المواعدة؟».

حملق فيها. هذه المرة، كان تجهمه حافلاً بالعتب والتحذير. أخيراً، تفوه بالكلام:

ـ أتلمحين إلى أنني أفتقر للاحتراف خلال ممارستي لمهنتي؟.

ـ لا داعي لسرعة الغضب هذه يا دكتور. فما تفعله خلف ستار مهنتك يعنيك وحدك. كلّ ما في الأمر أنني أحسست أنها لا تعاني تشنجاً في الفك بقدر ما تعاني شهوةً في الجسد.

ارتفع حاجباه قليلاً، ثم رمى السكّين، والتفت بغتةً بطريقةٍ ارتعدت لها فرائصها. حدّق فيها والشرر يتطاير من عينيه. وأخيراً، هتف: «ما رأيك لو نتكلم في الموضوع بصراحة، فنعالج المسألة قبل أن تنساها برمتها؟».

أومأت برأسها بحذرٍ ومزيجٌ من القلق والحيرة يتملكها. ترى ماذا سيقول؟ أسيخبرها أنه يقيم ومادلين علاقةً؟ أسيقول لها إن لا شأن لها بمن يغازل أو بمتى يغازل؟ أيقدم على كلّ ذلك بهدف تخفيف حدّة التوتّر ليس إلاّ؟ ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وهي تتمنّى لو أن فضولها لم يدفعها إلى طرح هذا السّؤال السّخيف.

غير أنه فاجأها إذ غيّر الموضوع بسرعة: «ما حدث بيننا في الغابة كان غلطة. أظنك تدركين الآن أنني لم أتهور بسببك بل لأنني لا أغازل مريضاتي».

ثم أشاح بوجهه، فأحسّت أنه يجاهد ليمنع نفسه من الصّراخ في وجهها، بعد سؤالها البذيء هذا. حين التقت عيناهما مجدداً، بدا أنه استرجع هدوءه، إنما ظلّت الكآبة نفسها على وجهه.

ـ إنّي آسف، فليس من عادتي أن أقدم على ذلك ، وأنا مستعدّ لأيّ شيء لأزيل أثره.

طرفت بعينيها، منزعجةً، من دون أن تدرك السبب. ظنّت أنه يوضّح أن العلاقة التي تجمعه بمادلين مهنيةٌ بحت. لكنّ رغبته في إدانة عناقهما في

سبيل الدفاع عن نفسه جرح كبرياءها الأنثوي. لماذا؟ حبّذا لو تفهم! ألم تشأ أن تنسى ما حدث؟ ألم تعتبره هي أيضاً غلطةً بشرية فادحة؟.

رمت الشوكة بعنفٍ وغضب، ثمّ قالت: «لا تقلق يا دكتور، لقد نسيت الحادثة منذ وقعت».

وضعت يديها على خصرها، وأضافت: «ماذا سنفعل الآن؟».

أسدل نظره إلى الأرض، ثم أجابها: «علينا أن نحاول أن نتفق، على ما أعتقد».

همهمت بازدراء من دون أن تحاول حتى أن تتمالك نفسها. لقد زرع فيها مارك ميربت القلق والاضطراب. كان بها من التوتّر ما يدفعها إلى الصّراخ. إنها تعرف تمام المعرفة أنها لم تنسَ عناقه، وأن ادّعاءها لم يكن إلا ضرباً من ضروب الخيال. ربّاه! كم تكره نفسها لأنها احتفظت بهذه الذكرى الغبية في قلبها.

ـ قصدت أن أسأل عما تريدني أن أعدّ للعشاء يا دكتور. يكاد الدجاج أن ينضج.

نظر إليها وجفناه شبه مغمضين وأجاب: «إني أجهل آداب العشاء في الأدغال، لكن حضارتنا المحلية، تحتّم علينا أن نرتّب المائدة، وتتلخص هذه العملية في وضع أدواتٍ معدنية، تسمّى. . .».

قاطعته، وهي تتّجه نحو الخزائن حيث الأطباق: «يا لذكائك الخارق! إن موهبتك ضائعة في الطّب. إذا ذهبت إلى لاس فيغاس، فإن مواهبك ستؤمن لك ما لا يسعني تخيّله!».

ثم أمسكت بطبقين وأضافت: «أتريد القهوة؟».

دمدم قائلاً: «من الغريب أنك ذكرت لاس فيغاس».

ـ ماذا؟.

تمتم وهو يهزّ برأسه: «انسي الأمر».

حاولت أن تتمالك غضبها، إنما بدون جدوى، فوضعت الأطباق

مكانها محدثة ضجةً كبيرة. استدارت لتحضر الآنية الفضية، لكنها توقفت فجأةً إذ وجدت نفسها تقابل مارك وجهاً لوجه. لم يكن يفصل بينهما إلا إنشات قليلة. وتراجعت خطوة إلى الوراء بدافعٍ غريزي، وبادلها بالمثل. ثم بقيا لمدةٍ طويلة يحدّقان في بعضهما البعض بتوتّرٍ ازداد شيئاً فشيئاً. أخيراً، أشار مارك إلى الخزانة، وقال: «سأحضر كوبي قهوة».

اجتاحها شعورٌ بسيط بالانتصار لمّا سمعت صوته يتشنج، وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ وقحة.

فتحت درجاً، وهي تحاول صرف النّظر عن الموضوع، ولم تدرك أنها تعدّ طاولة لاثني عشر شخصاً إلا بعد فوات الأوان.

كادا يصطدمان ببعضهما مجدّداً، وهي تعيد بقية الأطباق إلى مكانها. غير أنّها حافظت على هدوئها هذه المرّة، بطريقةٍ أو بأخرى، وأشارت إلى الطاولة بإيماءةٍ واضحة: «تفضّل».

وضع الكوبين كلاًّ إلى جانب طبق. أما هي، فراحت ترتّب الأدوات الفضية. وأخيراً، قطع حبل الصّمت سائلاً: «كيف جرت لعبة الشطرنج ليلة أمس؟».

فاجأها سؤاله، وهزت كتفيها استهجاناً، ثم تابعت: «لقد ربح، لكني سأنتقم هذه الليلة. فأنا لم ألعب منذ مدّةٍ طويلة».

استدار بغتةً، وسألها: «هذه اللّيلة؟».

أزاحت خصلة شعرٍ عن جبينها، وسألته: «أتواجه مشكلة إن لعبتُ الشطرنج مع أبيك هذه اللّيلة؟».

دسّ يديه في جيبي الجينز، وقال: «أنت من سيخسر ساعات نومٍ لذيذة».

سكت قليلاً ثم أضاف: «لا شك أنك تحبين الشطرنج فعلاً».

رفعت رأسها وأجابت: «نعم. ولمَ لا؟».

هزّ رأسه بلامبالاةٍ وردّ: «ما من سببٍ معيّن».

ظلّ نظره يجول على غير هدى لمدّةٍ ليست بقصيرة، قبل أن يستقرّ مجدّداً على الطعام أمامه.

ـ لقد قلت إنك لم تمارسي اللعبة منذ فترةٍ طويلة، أليس كذلك؟.

علقت الكلمات في حنجرتها لبرهةٍ، قبل أن تقولها أخيراً بما يشبه الهمس: «منذ توفيّ. . والداي».

لم ينبس ببنت شفة. ومرّت دقائق اكتفى فيها بالوقوف أمام القدر. وأخيراً قال: «إن كنت لا تمانعين سؤالي. . . كيف توفيّ والداك؟».

ورغم أنها أثارت الموضوع بنفسها، إلاّ أنّ السّؤال وقع عليها وقوع الصّاعقة. كانت ذكرى ذلك النهار الرهيب لا تزال حيّةً، في ذهنها.

ـ في فيضان.

أسندت مرفقيها إلى الطّاولة، وأراحت رأسها بين يديها. وبعد تنهيدةٍ طويلة، أضافت:

ـ كنا نعبر نهراً في كينيا. ولم نكن نعرف أن النّهر فاض في الجبال. وإذا بسيلٍ يجرفنا من الأعلى. كنت الأقرب إلى السّاحل، فنجوت.

ثم صمتت وقد سرقت منها الصّدمة قدرتها على الكلام. وبعد أن أخذت نفساً عميقاً، تمالكت أعصابها، وتابعت همساً: «كانا. . .».

لكن سرعان ما توقفت عن الكلام، وابتلعت ريقها مرّاتٍ عدة، في محاولةٍ منها لتستعيد رباطة جأشها.

ـ كان هذا قبل عشر سنوات.

سألها برقة: «كم كان عمرك؟».

ـ سبع عشرة سنة.

ساد السكون لبرهة طويلة، وأخيراً تمتم: «أنا آسفٌ».

أحسّت بالرّأفة في صوته، فمالت برأسها لتنظر إليه، ثم تمتمت بدورها: «شكراً، إني آسفة أيضاً».

لبث واقفاً، بقامته الفارعة وجسده القوي المتين. ترى، لمَ خيّل لها أن

www.elromancia.com

سبب عبوسه ليس استياءه بقدر ما هو صراع داخليّ يتحكّم به؟.

لم يكن أمامها إلا أن تعدّ دقات السّاعة لئلا تصرخ بأعلى صوتها كالمجنونة. في الواقع، لم تكن قد تقبلت عناقهما بتاتاً. فمنذ حدث، وهي تعضّ على شفتيها وتصرّ على أسنانها وكأنها حيوانٌ بريّ جريح.

لماذا يستطيع هذا الرّجل أن يدفعها للجنون، ذلك ما لا تملك له جواباً. ولماذا يأسر نظراتها طويلاً، فهذا ما يبعث فيها الاضطراب، لا بل الخوف الشّديد.

بعد صمتٍ طويل، تكلّم وأمارات الجدّ والعزم على وجهه: «اسمعي يا آنسة بابتيست، لقد غيّرت رأيي. سأدفع ثمن الضّرر الذي لحق بزورق صديقك. كما سأدفع مصاريف رحلتك أيّاً كانت وجهتها».

ثم استقام، وأرجع يديه إلى جيبيه قبل أن يضيف أخيراً: «يمكنك أن ترحلي في الغد».

* * *

٦ ـ المتهورة الفاتنة

وقع الخبر على ميمي وقوع الصاعقة، فعجزت عن الكلام، بل عجزت حتى عن تقبل الفكرة نفسها. استقامت في جلستها، وحدّقت فيه قائلة: «أتريد... أتريد مني أن أرحل... في الغد؟».

أومأ برأسه ببطء. فاجتاح معدتها شعورٌ غريب حارق، لم تعرف له مثيلاً في حياتها. ما عساه يكون، أغضبٌ أم اضطراب؟.

ـ لماذا؟ ألم أؤدّ عملي بشكلٍ مرضٍ اليوم؟ هل وظّفت مساعدةً جديدة؟.

هزّ رأسه نفياً، وهو يشيح بنظره عنها: «بل كان عملك جيّداً. لكني أعتقد أنه من الأفضل أن ترحلي. هذا كلّ ما في الأمر».

تعجّبت من نفسها. ما بال وجهها يكفهر بدل أن تقفز فرحاً تهليلاً بالمناسبة؟ ألم تتمنّ من كل قلبها أن يحرّرها من هذا السّجن الطويل، من عينيه المثيرتين ولمسته الرقيقة؟

راحت تتلاعب بمحيط حزامها وهي تحاول أن تحلل سبب تردّدها. لِمَ تشعر وكأنها مستأجرةٌ ساخطةٌ طردت من شقتها لتوّها؟ ولِمَ لا تريد أن تُطرد؟ رمقته وهي تتمتم:

ـ لقد عملت كجملٍ اليوم يا دكتور.

بادلها النّظر إلاّ أنه التزم بالصّمت.

- لا يمكنك أن تتحمّل عبء كل هذه الأعمال بمفردك طيلة ثلاثة أسابيع، وأنت تعرف ذلك.

ماذا تفعل؟ كيف تحاول اقناعه بإبقائها؟.

زمّت شفتيها في غيظٍ واضح. ولكنّه، رغم ذلك، ظلّ ساكتاً وسرعان ما وثبت عن مقعدها وقد استبدّ بها الغضب. كان عليها أن تكسر حبل الصّمت، سواءً شاءت ذلك أم أبت.

- اسمع يا دكتور، أدرك أننا ضايقنا بعضنا كثيراً، وأفترض أنّك تملك المال لإصلاح الأضرار، لكنّك أهنتني وتستمرّ في إهانتي إن كنت تظنّ أنني سأقبل بإحسانك اللّعين بصدرٍ رحب وأدير ظهري.

خطت نحوه ببطء، ثم وجّهت إلى صدره لكمة خفيفة: «أنا لا أضرب الرجّال، لكن أعتبر أني صفعت وجهك».

لكمته مجدّداً وأضافت: «إني أدفع على طريقتي وإيّاك أن تنسى ذلك».

ثم راحت تلكمه وتلكمه مجدّداً تأكيداً على كلامها، وإذا به يقبض على يديها فجأةً، ويتكلّم بنبرةٍ محذرة: «آنسة بابتيست، تابعي عرضك هذا، وستلعبين الشّطرنج واقفة على قدميك».

كانت عيناه تومضان بمعنى خفيّ، ففغرت فاها، ثم ارتدّت وهي تحاول أن تتخلّص من قبضته، لكنّه رفض أن يحرّرها.

تلعثمت وهي تحاول أن تتمالك نفسها: «أنا.. إن النساء يقاومن الاعتداء الجسدي في هذه الأيام يا دكتور».

حملقت فيه وقد احتدّت غيظاً وجاهدت لتتغافل عن خفقان قلبها.

- لعلمك يا آنسة بابتيست...

سكت فجأة، ولبرهةٍ وجيزة، لكنّها من الطّول بحيث أطبقت على أنفاسها حتى أحسّت بأوردتها تتمزّق. ازداد منها اقتراباً. ومن دون أدنى تفكير، رفعت إليه وجهها ثمّ أغمضت عينيها وهي تنتظر لمسة يديه لكنه قرّب شفتيه من أذنها وهمس:

- كذلك هي حال الرّجال.

ثم أطلق يدها بغتةً حتّى كادت تتعثر. وحين فتحت عينيها، كان قد اختفى عن ناظريها.

كان الأسبوع الأوّل الذي قضته ميمي كمساعدةٍ للدكتور ميريت متعباً للغاية. لم تعمل بهذا الجدّ في حياتها من قبل، وهي تملك الآن فكرة، وإن غامضة، عن سبب حبّ هذا الطبيب لمرضاه، وبقائه في هذه الجزيرة.

مشت بتثاقلٍ نحو موضع ظليلٍ منعزل وراء الكوخ، هو أول ما يقع عليه بصرها، حين تستيقظ صباحاً وتطلّ من نافذة غرفتها. وكم من مرةٍ فكّرت أنّها ستسبح عند ساحله ما إن تسنح لها الفرصة، لكن الوقت الآن متأخرٌ والتّعب قد أخذ منها كلّ مأخذ، كما أن المياه باردة. وعلى كلّ حال، إنها تحتاج لبرودة، تصرف فيها طاقتها، طاقة عليها أن تكتمها حتى الممات. فأفكارها حميمةٌ ومشوشةٌ دائماً، وهي تجنح غالباً نحو شخصٍ ترفض أن تفكّر فيه بهذه الحميمية.

وقفت على مسافةٍ آمنة من الأمواج المتكسرة، ومدّت منشفتها على الرّمل، ثم خلعت خفّيها. بعدئذٍ نزعت عنها سروالها وقميصها، وألقت بهما فوق المنشفة. بعد ثانية تردّدٍ، خاضت غمار الأمواج، وغاصت بقوة في مياهٍ غير عميقة. وسرعان ما لفحت بشرتها مياه المحيط الباردة، فانتعشت، وراحت تسبح وهي تهتف فرحاً.

حين سبحت باتّجاه الشاطىء، فاجأتها موجةٌ، فتركتها تسحبها حتّى لامست رجلاها الرمل. ثم عادت أدراجها وهي تغوص في المياه العميقة، وتطلق صيحات الفرح. لمّا أعادت الكرّة مرّاتٍ عديدةٍ أحسّت أن توتّرها كلّه ذهب أدراج الرياح. لم تكن قد أدركت مدى إجهادها منذ اصطدمت بمركب مارك ميريت. ثمّ أغمضت عينيها، وتوغلت في العمق أكثر وهي تسبح بقوةٍ تنطوي على يأسٍ شديد.

راحت تومض في ذهنها بين الفينة والأخرى صورٌ لمارك، تارةً وهو

برتدي بيجامته، طوراً وهو يبتسم لفتاة صغيرة عساه يخفف مخاوفها. وتذكّرت كيف تتلامس يداهما كلّما سلّمته التقارير الطبية أو الضمادات البيضاء. ثم أخذت نفساً عميقاً وغاصت تحت سطح المياه لتزيل الأفكار من رأسها.

كانت بحاجةٍ إلى الوقتِ لتستجمع أفكارها وتصفّي ذهنها. حمداً لله أن الغد يوم أحد! سيكون يوم عطلة، إلا إذا قرّرت مريضته سالي أن تنجب ولدها. كانت ميمي تأمل أن تنفرد بنفسها لبعض الوقت، بعيداً عن عيني الطبيب، فتقرأ كتاباً في ظلّ شجرة أو تلاعب كابل.

التفتت مجدّداً نحو الشاطىء حيث فاجأتها موجةٌ أخرى. لكنّها ذاقت في الغطس طعم الحرية والسّعادة وشعرت وكأنها تطلق العنان لنفسها من غير تفكيرٍ، وكأنّها تنبعث من جديد قلباً وقالباً. كانت، ببساطة، امرأةً ولدت من جديد.

تناهى إليها نباح فوفو من الشاطىء. فتقدمت نحوها، لكن ما إن لامست رجلاها الرمل حتى كبحت جماح غضبها، وأزاحت الشّعر عن جبينها، ثم كشّرت في وجه الكلب، وهي تهتف.

ـ قلت لكِ ألاّ . . .

لكن الكلمات سرعان ما ماتت على لسانها حين أدركت أن فوفو لم تكن وحيدة على الشاطىء. لحسن الحظ، كانت المياه ما تزال تغمر جسدها، فما كان منها إلا أن هرعت نحوها، حتى لم يبدُ منها إلا الوجه. وفي هذه الأثناء، صدمتها موجةٌ جديدة، وهدّدت بدفعها إلى الأمام غير أنها حافظت على توازنها، وشعرها المبتل يغطّي وجهها كله.

أخيراً، ارتدت قناع الثقة الكاذبة، ولوّحت من بعيد: «جيّد، أنت هنا».

كان مارك بعيداً عنها، وضوء القمر خافت، فلم تستطع أن تتبيّن ملامحه جيّداً، لكنّ وقفته لم تبدُ عادية قطّ.

ناداها قائلاً: «أنت سعيدةٌ بمجيئي إذاً».

فأومأت وهي ترفض أن تتخلّى عن قناعها: «بالطّبع، فقد أمرت فوفو بالعودة، لكنّها ترفض إطاعتي».

ـ إنّها تشبه شخصاً أعرفه.

ـ كم أنت ظريفٌ يا دكتور.

ارتسمت على وجهها مشاعر المهانة، ولكنها ارتاحت لأنه لا يراها بوضوح. وأضافت:

ـ خذ كلبتك وغادر المكان. أريد أن أكون وحدي.

إلاّ أنه ككلبته ماهر في العصيان! فمارك لم يتحرّك من مكانه في الحال، بل دس يديه في جيبيه، وهتف مجدّداً: «بشأن رغبتك في الانفراد يا آنسة بابتيست، أخشى إنني أحمل لك أخباراً سيئة».

عبست وأجابت: «أرجو ألا تقصد أنك تنوي البقاء في الجوار! إن لم تلاحظ بعد، فأنا لا أرتدي ملابسي!».

عرفت، حين استدار إلى الخلف، أنه ينظر إلى منشفتها وثيابها وما لبث أن ارتفع صوته: «بل لاحظت!».

صرخت بدورها: «رائع! فأيّ سببٍ تستخدمه كعذرٍ لملازمتك المكان؟».

مرّر يده على فمه. ونمت حركته إمّا عن إحباطٍ وإمّا عن تسليةٍ مكتومة. وصاحت: «آمل أنك لا تجد الأمر مضحكاً».

ـ غير مضحكٍ البتة!

ـ ماذا إذاً؟

ثم أشارت ناحية الكوخ، وأردفت: «اذهب بعيداً!».

انحنى ليداعب فوفو، وأجابها: «حسناً، لكني سأشعر بالذنب إن لم أخبرك بأمرٍ واحد أولاً».

كان بها من الغضب ما أخرسها عن الكلام، لكنّها عرفت أن الطبيب لن

يقدم على فعل غير متأكد منه. فنادته: «حسناً، هيّا، افرغ مكنونات صدرك يا دكتور. لا أريدك أن تشعر بالذنب. أخبرني وارحل!».

رأته يخرج شيئاً من جيبه الخلفي، ولمّا أبصرت نوراً يومض ثم يخفت، أدركت أنه مشعلٌ كهربائي. وسرت الرجفة في أوصالها، وقد أحسّت أن من الغباء البقاء في هذه المياه الجليدية. فصرخت: «أ... أسرع... إني... أتجمدُ برداً».

غير أنه لم يجب، بل راح يوجّه المشعل ناحية الأشجار. وحين أطفأ النور، أبصرت ميمي جسماً معدنياً يرسل إشاراتٍ ضوئية من خلال أحد الأغصان.

ـ أترين ذلك؟

ـ نـ... نعم، ما قصدك؟

شعرت بمزيج من الحيرة والقلق، فكتّفت يديها، وإذا بموجةٍ أخرى تغمرها. ها هي المياه التي منحتها منذ برهة حياةً جديدة، قد باتت الآن باردة إلى حدّ الإزعاج.

ثم سلط الضوء على موقع مرتفع لم تره ميمي من نافذتها قبلاً.

كرّر سؤاله: «أترين هذا؟».

راحت ترتجف كورقة في مهب الريح... ولكنها تمكنت من الصّراخ: «وماذا في ذلك؟».

استقام وأجاب: «ابتسمي إذاً يا آنسة بابتيست، ففي هذا الموقع كاميرات مراقبة. أيهمك أن تعرفي ماذا تصور هذه الآلات في الوقت الحالي؟».

بعد برهةٍ، استدار وسار نحو الكوخ بخطىً متثاقلة، قبل أن يضيف: «استمتعي بالسباحة».

مرّت ثوانٍ قبل أن تستوعب كلامه. ماذا يقول: كاميرات؟ تصوير؟ ابتسمي؟.

كاد عقلها ينفجر من وقع الإهانة. كيف يجرؤ على ألا ينبهها من كاميرات المراقبة؟.

حدّقت فيه وهو يمضي في سبيله وكأن شيئاً لم يحدث، ثم هتفت: «لن تتركني هنا، أليس كذلك؟».

فتوقف واختلس النّظر إليها: «ظننت أن هذا مرادك».

انحنت بتذلّل، ثم رفعت يديها عالياً قبل أن تجرفها موجةٌ، وتخلّ بتوازنها. فأطلقت الشتائم، قبل أن تصيح: «يمكنك على الأقل أن ترمي ليَ المنشفة!».

فواجهها قائلاً: «حتى إن خضت الماء ورميتها لك، فلن تصل إليك أبداً».

ارتجفت برداً، ثم اقتربت ما أمكنها من الشاطىء، وطالبت مجدّداً: «إنّي أتجمد برداً. ألا يمكنك الاقتراب من الماء أكثر؟».

لكنه سار متمهلاً وهو يعود أدراجه نحو الشاطىء: «وهل أعرّض سترتي للبلل؟».

فصرخت: «حسناً، لا تفعل! لكن، إن أجبرتني على السير إلى المنزل شبه عارية، فلن أوجه لك الكلام مجدّداً!».

كتف يديه بدوره وأجاب: «عرضك مغرٍ جداً يا آنسة بابتيست».

توقّف عن الكلام متململاً، ثم هزّ رأسه وانحنى ليفكّ شريط حذائه: «إيّاك أن تعتقدي أنني أقوم بذلك خوفاً من عدم التحدث إليك بعد اليوم».

رفعت صوتها: «لن تخطر هذه الفكرة في بالي يوماً».

ما إن خلع حذاءه وجوربيه، حتّى اندفع نحو المياه. فاستوقفته قائلة: «وماذا عن المنشفة».

ـ ستحتاجين إليها ما إن تبلغي الشاطىء.

ـ لكن... لكن ماذا...

فتذمر: «اخرسي يا آنسة بابتيست.. إني أنقذك.. فاقبلي عرضي أو ارفضيه».

خافت أن تجيب، فيفضح صوتها ارتجافها. فلزمت مكانها تنتظر مارك، والبرد قد جمّد أطرافها، وراحت تلوم نفسها على قرارٍ آخر من قراراتها المتسرعة.

حين دنا منها، حدّقت فيه بحذر وسألته: «ماذا... ستفعل؟».

ـ كما قلت لك تماماً.

وبدأ يخلع قميصه، ثم أضاف وهو يرى الاجفال مرتسماً على وجهها: «البسي هذا!».

أمسكت القميص، وتركته ينسدل فوق رأسها، ثم جاهدت لتدخل ذراعيها في الكمّين، فيما الأمواج حولها تتلاطم وجسمها يرتعش. حين نجحت أخيراً، كانت قواها قد خارت، والنسيج قد تشرب الماء تماماً.

سألها: «أيمكنك أن تقفي؟».

ظنت أنه سلمها القميص، ثم عاد أدراجه. لذلك، كادت قدمها تزل حين ارتفع صوته.

ـ ط... طبعاً.

لكن، ما إن وقفت على قدميها، حتى انهارت تلقائياً، وغاص رأسها تحت المياه. وكم كرهت جسدها لأنه خانها في لحظة ضعف!

أحسّت بقبضةٍ تطبق على معصمها، وأدركت أن مارك يحاول جذبها نحو سطح الماء.

وما إن أخذها بين ذراعيه برفقٍ، حتى بدأ يوبخها بسخرية:

ـ كان ذلك ممتعاً للغاية. لكنّ الأسلوب الذي تعتمدينه للعودة إلى الشاطىء قد يستغرق وقتاً طويلاً.

كانت تسعل بقوةٍ وتتنفس بجهدٍ واضح. فما كان منها إلا أن قبضت

على عنقه. وإذا بدفئه يتدفق فيها. ماذا لو أنها غير معجبة به؟ ماذا لو أنها لا تتوق إلى ذراعيه بلهفةٍ؟ يكفيها أنه موقدٌ بشري مشتعل وأنها كتلةٌ من الجليد.

فيما هو يعود بها جاهداً إلى الشاطىء، غمرتها المياه من كل جانب. وأخذ جسدها يرتجّف بعنفٍ، فيما اصطكّت أسنانها كصنج صاخب. أخيراً، تلعثمت: «شكـ... شكراً يا دكتور.. كان هذا غباءً مني...».

ظلّ صامتاً، لكنها أحسّت به يصرّ أسنانه.

ـ أهذه دولةٌ عسكرية يتولّى الرئيس مراقبة كلّ شبرٍ منها؟.

فأجاب: «بل تقتصر المراقبة على الشاطىء، وذلك لاكتشاف الزوار غير الشرعيين، قبل أن ينتشروا على الساحل للتنقيب عن الأحجار الكريمة».

بدا كلامه منطقياً. كيف لم تساءل يوماً عن وسائل الأمن في امبراطوريتهم؟ فهذه جزيرة زمردية، بكل معنى الكلمة، وهي لا تقدّر بثمن! وما لبث أن لعنت نفسها لتسرّعها مرة أخرى ولعدم تفكيرها.

لمّا خطت خارج المحيط، راحت تمشي حتى تجاوزت كومة الثياب.

ثمّ سألت بصوتٍ قصير حادّ: «ماذا عن الـ... منشفة؟».

ـ أيمكنك أن تقفي بمفردك، إن عدت لأحضرها.

فكّرت قليلاً، ثم هزّت رأسها نفياً: «ليس بعد!».

ـ ينبغي أن تصلي إلى البيت.

لمّا لم تجد حجّةً ترد بها على هذه الكلمات الحكيمة التي تلفظّ بها، سألته: «كيف وجدتني؟».

لم تعد تشعر أنها أشبه بجبلٍ جليدي، فالحرارة المتدفقة من هذا الرجل...

فجأة، صرخت في نفسها محذرة: «لا، يا ميمي، لن نخوض في هذا السجال مجدداً!».

- استعنت بنباح فوفو!

اختلست النظر إلى الكلبة وهي تسلك طريقاً متعرجاً، ثم قالت وهي تشعر بالخزي: «إني محرجةٌ للغاية. هل تعتقد أن أحدهم رآني؟».

كانت ضحكته خافتة، عميقة وساخرة، رغم ذلك، استقبلتها أذناها بسرورٍ.

- لا يتلقى قسم المراقبة راتبه كي ينقطع عن العمل لفترة طويلة.

فتمتمت بأنينٍ: «لا شك أنهم اجتمعوا لحضور المشهد، حاملين الفشار، وهم يقهقهون بلا توقّف».

وتابعت: «قد أضطر لقتل نفسي».

- من جانبٍ آخر، إنهم يتلقون رواتبهم كي يحافظوا على السّرية. إن كنت قلقة من أن تبث مواقع الانترنت شريط مغامرتك في البحر، فلا عليك!

رفعت رأسها لتحدّق فيه بعينين ملؤهما الهلع: «أهي مسجّلة؟».

ازدادت ملامحه ارتباكاً لمّا بادلها النظرات، ثم أجاب: «أستنتج أنك غير ملمّةٍ بالأجهزة الأمنية».

في هذه اللحظة، لم يكن مارك وحده من يتّقد حرارة، بل وصل اللّون المحموم إلى وجنتي ميمي أيضاً. في الواقع، شعرت بخجل شديد. وما لبثت أن تنهدت بعمق، ومرّرت يدها في شعرها المبلل.

- سأقتل نفسي بكلّ تأكيد.

بعد قليلٍ، أشار إلى باب الكوخ قائلاً: «قبل كل شيء، هلاّ فتحتِ الباب؟».

فاستدارت، والاضطراب يسيطر عليها، ثم نفذت ما طلب. وما إن أدارت المقبض، حتى فتح الباب بركبته وحملها إلى الدّاخل.

حين لم يتوقّف في الحال، أصيبت بالإجفال، واشتدّ ذهولها لمّا راح يتابع السّير بخطىً واسعة.

- إلى أين أنت ذاهب؟.

- إلى الحمّام. أنت بحاجةٍ إلى الدّفء.

أحسّت بوخزةٍ من الخوف، وسارعت تقول: «ولكنني أشعر بالدفء. أرجو ألاّ تكون لديك نيّة أن تحمّمني بنفسك!».

توقّف عند زاوية المطبخ، ثم حملها برشاقة في الرواق. بعدئذٍ، فتح باب الحمام بكتفه وألقى بها في مغطسٍ مليءٍ بالفقاقيع. ولم يمرّ وقتٌ قليل حتى استقام ومرّر يده في شعره، بحركةٍ تنم عن توترٍ في عضلات صدره وذراعه. أخيراً، سألها بصوتٍ تشوبه الخشونة: «أيمكنك تولّي الأمر من هنا؟».

على أي حال، من يلومه إن بدا منهكاً؟ فلقد حمل للتو امرأةً يقطر منها الماء بغزارة، ولن تندهش ميمي إن انهار على الأرض تعباً.

فجأةً، حانت منها التفاتةٌ، وقد اتخذت قرارها. كانت يداها تشدّان القميص الفضفاض إلى ما دون ركبتيها. غير أنها أرخت قبضتها بغتةً، وأومأت للطّبيب بإصبع منها: «اقترب لحظة يا دكتور».

أخفض حاجبيه ثمّ رفعهما ثانيةً في تعجُبٍ ملحوظٍ، وسأل: «ما المشكلة؟».

أومأت بإصبعها مجدّداً، وتوسلّت: «أرجوك!».

فما كان منه إلاّ أن ركع إلى جانب المغطس، والشك يرتسم في عينيه: «ماذا تريدين الآن؟».

مالت على الحافة وعانقته، ثمّ همست: «شكراً».

وكما اقتربت منه فجأةً، انسحبت بسرعة. لم تبالِ إن كانت هذه الخطوة إحدى بنات أفكارها المتهورة. فبعد كل ما قيل وحدث، كان شهماً وودوداً معها، ولم تستطع أن تكبح جماح نفسها.

وما لبثت أن أردفت: «أعلم أننا لا نتفق كثيراً، لكني أقدّر ما فعلته من أجلي الليلة».

لم تكن ميمي تملك أدنى فكرة عمّا توقّعه، ولكن بدا واضحاً أنه لم يتوقّع ما حصل أو ما سمعه. بقي راكعاً في مكانه وهو يرمقها، بوجهٍ ساحر حتى في ذهوله.

***

وضع مارك المولود الجديد بين ذراعي ميمي.

وارتسم على وجه مساعدته، المعارضة أبداً، تعبير جديد، تعبير لم يلحظه عليها من قبل. كانت ملامحها تنضح بعذوبةٍ رقيقة، وقد ترقرقت العبرات في عينيها. بدا أن في زاويةٍ من زوايا فؤاد هذه البوهيمية المتهورة، شرارة من الأمومة.

حاول مارك أن يبعد نظره عن وجه ميمي، ولكنّه قابله بالعصيان. بدت، وكأنها مراهقةٌ، سرق الزّمان من عمرها سنيناً، بل بدت وكأنها تماثل سالي سناً.

كان مارك قد تلقى اتصال رايف عند الواحدة من صباح يوم الأحد. ولم يكن النوم قد وجد إليه سبيلاً، لا سيّما وأنه عجز عن طرد مغامرة المساء من باله. بدت مهمة الإنقاذ تلك أسوأ ربع ساعةٍ مرّت في حياته. فلهذه المرأة قدرة عجيبة تقضي على رباطة جأشه، وتضاعف من توتره، وتسهّره ليالي يسامر فيها خيالاتٍ حميمة لم يعرفها يوماً.

في العادة، قلّما يفرح بالاتصالات الطّارئة في منتصف اللّيل. لكن حين رنّ الهاتف، أمسكه وكأنه حبل نجاةٍ ينتشله من جحيمٍ مستعر.

بعد أن أنهى مارك وميمي عملهما عادا إلى جزيرة ميريت. كان ستار مظلم هادىء يخيّم على المحيط، والسّماء صافية مرصعة. جلست ميمي بسكونٍ إلى جانبه، وهي تحدّق عبر النافذة المقابلة. ودّ لو يعرف تلك

الأفكار التي تشغل بالها. وبحركةٍ جنونية، استدار ليواجهها كاسراً حبل الصمت.

ـ ما رأيك في الولادة الأولى التي ساعدت فيها؟.

ارتعشت وكأنها لم تتوقّع منه السّؤال. ولما التفتت إليه، فوجىء بالدّمع يترقرق في عينيها. وما لبثت أن أخذت نفساً، وطرفت عينيها حتى محت العبرات منهما.

تمتمت بهدوءٍ بصوتٍ لا أثر فيه لتبجحها المعتاد: «كانت تجربةً فريدةً من نوعها يا دكتور».

ثم ابتسمت بضعفٍ وهزّت رأسها وهي تهمس: «ميمي ليفيت... هذه الفتاة الصغيرة ستشق مصاعب الحياة، وتنعم بأفراحها، وهي تحمل اسمي أنا!».

راح مارك يراقبها وهي تفكر في هذه الحقيقة الخطيرة. لاحظ أن شفتها السفلى قد بدأت بالارتعاش. وحين عضّت عليها أخيراً، حوّل انتباهه إلى عينيها، فأذهله بحر المشاعر المتلاطم فيهما. كانت التجربة قد خلّفت فيها تأثيراً عظيماً. في لحظةٍ، اختفت المتسكعة الثرثارة، لتحل محلّها امرأةٌ حساسةٌ، فاتنةٌ في تأثرها. وتلك اللّحظة، وجّهت إليه ميمي نظرةً ساحرةً واحدةً، مسّته في الصميم.

أدرك أنها تشعر بالامتياز والتفاهة في آنٍ واحد فابتسم وقال:

ـ ستكون ميمي ليفيت امرأةً مميزة حين تكبر إن ملكت نصف شجاعتك فقط.

رغم أنه تفاجأ لأنه أفصح عن مكنونات قلبه، غير أنه لم يأسف. فقد قدّمت له ميمي، بهدوئها وسيطرتها على أعصابها، عوناً كبيراً، وتستحق منه تشجيعاً.

لدى سماعها مديحه، اتّسعت عيناها المتلألئتين فجأةً. بدأت دمعةٌ ترتعش على أهدابها، وشقت أخيراً طريقها إلى خدّها.

في تلك اللحظة بالذّات، سيطرت على مارك رغبةٌ مجنونةٌ في إزالة المسافات بينهما، حتى يشعر بدمعتها النّدية.

* * *

٧ ـ حديث المساء

لم تغمض ميمي جفنيها طيلة اللّيل. رغم ذلك، لم تكن تنوي أن تلازم الكوخ طوال النّهار. إنّما حين أبصرته مكبّاً على خزانة الملفات، لم تستطع إلاّ أن تعرض مساعدتها. فأجابها بنظرةٍ سريعة، وما لبث أن تمتم أنه ينهي بعض الأعمال المتراكمة، وأنه يوم عطلتها. بعدئذٍ، أشار إلى الباب، وعاد يصب اهتمامه على الملفات، خاتماً بذلك حديثهما.

وافقها سلوكه تماماً. فمساء أمس، طالعها في عينيه سحرٌ غامض، بل عذابٌ جعلها تتقلب على فراشها طيلة اللّيل. خيّل إليها أنها لمحت فيهما بوادر عناق، فاستجابت له، في لحظةٍ تمردت فيها على نفسها! لكن الحظ حالفها هذه المرّة، إذ أحجمت عن التهور في الوقت المناسب.

لا! لن تدعي الدكتور يغرز سهامه في قلبك بملامحه الريفية البريئة! إن هذا الرّجل لا يستريح، خوفاً من أن يحتاجه مريض! إنه لا يناسبك يا ميمي، فانسي أمره!.

إن آخر ما تريده هو أن تغمض عينيها وترفع نحوه وجهها كما فعلت الأسبوع الماضي في المطبخ، لا سيّما وأنه لم يكن يملك أيّ نية في معانقتها أصلاً. ومن حسن حظّها أنه أحنى رأسه ليهمس في أذنها، وإلاّ لاستغرب سلوكها الشاذ. أحسّت أن القدر لن يمنحها فرصة أخرى، لذا من واجبها أن تحافظ على سلامة عقلها، وتبتعد عنه قدر الإمكان. فهو قادر

على دفعها للتصرف بغباء وتفاهة.

ظلّت ميمي، حتّى وقتٍ متأخر من ذلك العصر، تحاول أن تطرد مارك من ذهنها. فقد شغل أفكارها فيما هي جالسةٌ مع كابل، تجلجل سوارها فوق رأسه. كان جايك وسوزان يرغبان في قضاء العصر في بورتلاند، فسارعت ميمي إلى عرض خدماتها.

وعند المساء، دعتها سوزان لتناول العشاء معهم فوافقت. كانت تعلم أن مارك واظب على رفض دعواتهم إلى العشاء أيّام الآحاد. وإن حالفها الحظ، وبقي مسمراً إلى كرسيّه، وسط كومةٍ من الملفات، ستتمكن من تجنبه طيلة المساء. ولا بد أنه سيرفض الدعوة هذه المرة، إن علم بوجودها إلى مائدة العشاء.

أمّا لماذا تعمد هي والدكتور إلى مضايقة بعضهما، فهذا سرّ لم تجد له تفسيراً. فتارةً يتشاجران، وطوراً يتبادلان النظرات بتوقٍ يصعب إنكاره. وكم من مرةٍ أحرقتها نار التوتّر المستعرة، حتى آلمتها في الصميم!

إذاً، لم لا يعترفان بمكنونات قلبهما، ويتخلصان من العذاب؟.

كانت قد فكّرت في هذا السّؤال كثيراً في الأسبوع الماضي، واكتشفت أن كلاًّ منهما يكنّ للآخر شعوراً قلّ مثيله، من الصّعب أن يذوق المرء حلاوته لبرهةٍ ثم ينساها. فإن تجلّى هذا الشعور، كيف لكلٍّ منهما أن يمضي في سبيله من دون أن يتذكر الماضي بمزيجٍ من الألم والندم؟.

لم تشأ أن يساورها الندم حين تترك مارك ميريت. بل أرادت أن تتطلع إلى الأفق الجديد بسعادةٍ وحماس. لماذا ترهق كاهلها بمشاعر الذنب أو الخسارة؟ في يوم من الأيام، سينير حياتها الرجل المناسب. وكما وجدت أمّها أبيها، ستعثرُ هي على توأم روحها، وسيمسك بيدها حين يجوبان العالم سويةً. ومعاً سيعيشان مغامراتٍ مثيرة، ويحيلان توقعاتهما وآمالهما إلى حقيقةٍ مدهشة.

كلّ هذا حلمٌ يستحق أن تسهر من أجله ليالٍ وتنتظر أياماً!.

لاح لها الكوخ من بعيد، فاستدارت وكلّ همّها أن تبتعد عن مارك وعن «ملفات عمله» قدر الإمكان.

وبعد أن سارت على غير هدى لساعاتٍ، وجدت نفسها في منطقةٍ لم يقع عليها نظرها قبلاً. سارت بتمهلٍ، مدفوعةً بالفضول، وراحت ترفس الحجارة بقدمها وهي تتأمل الأرض بتمعن. حين وصلت إلى حافة حفرةٍ، حدقت فيها، ثم وضعت يديها على خصرها، وهتفت: «إذاً، هذا هو منجم الزمرد العظيم في جزيرة ميريت! برأيي، ليس إلا فجوةً كبيرة!».

ـ على الأقل، إننا نتفق على أمرٍ واحد يا آنسة بابتيست.

اعتراها اجفال شديد، ولم تعرف ما إذا كان سيغمى عليها أم ستصاب بنوبةٍ قلبية! ولم يكن منها إلا أن استدارت ناحية الصوت، ويدها على قلبها:

ـ لقد أخفتني بشدةٍ يا دكتور، حتى كاد كبدي يتفتّت!

ظهر من خلف الأشجار، ورمقها بنظرةٍ متفحصةٍ من رأسها إلى أخمص قدميها، ثمّ أشار إلى يدها فوق قلبها: «بصفتي طبيبٍ يا آنسة بابتيست، أؤكد لك أن هذا ليس كبدك».

حدّقت فيه بانتشاءٍ لبضع ثوانٍ قبل أن تجيب: «لماذا كنت متوارياً خلف تلك الشجرة؟».

استند إلى جذع السنديانة الضخم وردّ: «كنت أراقب».

حملقت فيه وقد أصيبت بالاجفال. لقد توقّعت منه أيّ شيء إلاّ هذا. وسرعان ما كتّفت يديها وسألت: «تراقب؟ ماذا، أو من، كنت تراقب على وجه التّحديد؟».

فأومأ برأسه إلى البعيد، وقال: «الطّائر الطّنان».

اختلست النّظر إلى الجهة التي أشار إليها، وإذا بها تفاجأ فعلاً بطنانٍ يطير متنقلاً بين مجموعةٍ من الأزهار البريّة. التفتت مجدّداً نحوه، وهتفت: «وكنت من الاستغراق في مراقبة هذا الطّائر، حتى إنّك لم تلحظ وجودي».

فأجاب: «بل لاحظتك. . لكني جئت إلى هنا طلباً. . .».

ارتفع حاجبه لبرهة، قبل أن يستعيد قناع لامبالاته الظاهرة، ويضيف: «. . . للعزلة».

ثم ابتعد عن الشجرة، وسألها: «إذاً، أنت تظنّين أن المنجم مجرّد فجوةٍ كبيرة؟».

لما غيّر الموضوع بغتةً؟ تبّاً لهذا الطبيب وأساليبه المشوّشة!

ـ في. . . في الواقع، ليست منظراً مسرّاً للعين.

وما إن أقرّت بذلك، حتى تمنّت لو أنها تفوهت بجواب أكثر بلاغةً وذكاءً من هذا الهراء.

تقدّم نحوها بضع خطوات، فابتلعت ريقها وحاولت جاهدةً أن تحافظ على توازنها. أكان عليه أن يبدو بهذه الوسامة؟ لا، إنّه مجرّد رجلٍ. . . رجلٍ يرتدي سروالاً من الجينز وسترةً بلون الصوف الطّبيعي، وينتعل حذاء رياضيّاً. كألف رجلٍ ورجلٍ غيره. . أما شعره الأبنوسي الأسود، فليس إلا شعراً، والخصلة التي تتدلّى على جبينه مجرّد خصلة. لا هي مسبوكةٌ بالذهب ولا مغزولةٌ بالحرير!

وهل هاتان العينان اللامعتان غير عينين فحسب؟ لا شك أن في العالم ملايين من العيون مثلها! فما بالها إذاً؟ وسرت في جسمها قشعريرةٌ سمرّتها مكانها.

حين أصبح على بعد خطوتين منها، توقّف، ثم ركع عند قدميها والتقط حجرةً صغيرة. وحين استقام أخيراً، عرض ما بيده قائلاً:

ـ هذه زمردة، أو أنها ستكون كذلك ما إن تصقل.

حين رفعت يديها غريزياً، ترك الحصاة تسقط في كفّها. تأملتها، حتى تبيّنت النور الأخضر المتلالىء فيها. بعد وقتٍ ليس بقصير، تمتمت برقةٍ: «رائع».

وما لبثت أن التفتت إليه، وتابعت: «إن حدث وفشلت كطبيبٍ، بإمكانك أن تعمل في منجم الزمرد!».

صدرت عنه ضحكةٌ خافتة وجيزة، وقال: «شكراً لك، سأدرس هذا الاحتمال إذا فشلت في حياتي المهنية».

ظلّت تقلّب الحصاة بين يديها، قبل أن تسأله: «أيمكنني الاحتفاظ بها؟».

ثم رفعت سوارها، قبل أن تردف: «إنّي أجمع بعض التذكارات من مغامراتي. . .».

سكتت قليلاً وكأنّ فكرة خطرت في بالها، ثم أضافت: «. . . إلا إن كانت نفيسةً جداً، فآخر ما أرمي إليه هو إفلاس الشركة».

هزّ رأسه بتعبيرٍ ساخر، وأجاب: «تصرّفي على رسلك، فلا أظنّ أننا على شفير الافلاس».

ـ لست متأكدةً من ذلك يا دكتور. فمع حياة الترف والرفاهية التي تعيشها في الكوخ، لا أستطيع أن أمنع نفسي من القلق.

وبعد أن وضعت الحصاة في جيبها، هزّت رأسها بسخريةٍ وأردفت: «إن استخدامك لهذا العدد الكبير من الخدم، وانغماسك في الملذات، يدفعاني إلى الشك، وأخشى أن المطاف سينتهي بك تحت جسرٍ. والمسألة مسألة وقتٍ ليس إلا».

حتّى تكشيرته نفسها كادت تخطف لبها. وأجابها أخيراً: «يا لهذا الانتقاد القاسي!».

راعها ما تخلّفه جاذبيته فيها من أثر. وكم كرهت أن تبدي ردّ فعلٍ كهذا على مشهدٍ عادي!

عادي؟ إن ابتسامة مارك ميربت تملك القدرة على إحالة شجاعتها إلى رمادٍ! إن هذا الرجل يشكّل فعلاً خطراً عظيماً!

سرعان ما أشاحت بنظرها، والرّعب يتملكها.

أرادت أن تثرثر حول أيّ موضوعٍ تافه بانتظار أن تتفلّت منه.

ابتلعت ريقها بشدّة، وهي تقاوم لتتجاهله هو وجاذبيته المثيرة اللّعينة.

وقد عقدت النيّة على الهرب في أقرب فرصةٍ ممكنةٍ وراحت تثرثر وتثرثر لتتخلص من تأثيره عليها.

فصرخ بها: «اللّعنة يا ميمي! اصمتي!».

رمقته بنظرة، ولمّا اكتشفت أنّه قريبٌ منها قرباً شديداً، سألته بصوتٍ حادّ: «ماذا؟».

كيف دنا منها بهذا الشكل، وهي التي ما انفكّت تبتعد عنه؟ لماذا قضى عطره على قرارها بهذه السّهولة، وهي التي عزمت على المحافظة على مسافةٍ بينهما؟ ترى، ما سرُّ هذه النّظرة في عينيه؟

ثم عادت تسأله بصوتٍ يشبه الهمس: «ماذا؟».

كان الاضطراب يكتنف ملامحه، أحسّت أنه في خضم معركةٍ يوشك أن يرفع فيها راية الاستسلام. وأخيراً، زمجر: «اعفيني من هذه التّفاصيل المطبخية... لا أريد منك إلا شيئاً واحداً، وأريده في الحال».

كانت تفضّل ألا تعرف ماذا يريد، وتخاف ألا تتحقّق أمنيتها إن لازمت مكانها. لكنّها حاولت أن تتحرّك، وجاهدت لتشيح بنظرها عنه، من دون جدوى.

اخترقتها نظراته الثاقبة حتى عرفت أنها تطلب منها ما لن تمنحه بسهولة.

ـ ماذا ستمنحيني كتذكارٍ على زيارتك؟.

رغم أنه طرح السّؤال بهدوءٍ بالغ، إلا أنّ تغييراً ما طرأ على وجهه. وسرعان ما فهمت أنه لم يسألها إلا كارهاً، بسبب دافعٍ متمرّدٍ سيطر عليه.

كانت تحسّ بالصّراع الذي يحتدم في داخله، فهو يرجّع صدى صراعها أيضاً. رغم علمها أن رغبته في التّورط مع غجريةٍ طائشةٍ تماثل رغبته في التهام حشرة!.

كما لاحظت أيضاً بحر الانفعالات المتناقضة الذي يغرّقه، لأنها سبق وغرقت فيه بدورها. فكلاهما يدرك أن الاستسلام لأهوائهما لن يجرّ عليهما

إلا إدماناً لا سبيل إلى الشفاء منه. لكن، من سيدفع الثمن في النهاية؟.

أقسمت ميمي، بكلّ ذرةٍ من قواها، على ألاّ تسمح لنفسها بالانجراف مجدّداً. فهذه المرّة، ستتحكم بتصرفاتها، وتكون مسؤولةً عنها كامل المسؤولية! يكفيها ما أمضت في الأسبوع الماضي من ساعاتٍ وهي تفكر في مارك. وأخيراً، تمالكت أعصابها، وقرّرت ألا تعير طلبه أيّ اهتمام.

ولمزيدٍ من الاحتياط، ابتسمت ابتسامةً وقحة، ثم قالت بهدوءٍ ظاهري: «حسناً يا دكتور، هاك تذكاراً ـ لئلا تنساني».

شدّت على كتفه بإحكام، وكأنّها تتأكد من بعد المسافة بينهما. ثم وقفت على رؤوس أصابعها، ونظرها على خدّه. إن كان يريد عناقاً، فستمنحه إيّاه! فليكن تذكاراً طاهراً يبيّن فعلاً أنها حصينةٌ ضدّ سحره.

فجأة، وفي طرفة عين، حدث ما لم يكن في الحسبان. ورغم أن مارك لم يحرّك ساكناً، ولو لخطوةٍ قصيرة، إلاّ أنّ جسديهما التقيا.

أطلقت حنجرة مارك صوتاً مخنوقاً، فيما طوقتها يداه بقوةٍ. وفي لحظةٍ، وجدت نفسها تتعلق به، وإذا بجيشانٍ من المشاعر يسري في شرايينها كالنّار في الهشيم.

وما هي إلا ثوانٍ حتى تناهت همساته إلى مسامعها: «لا ترحلي يا ميمي. ابقي معي».

وعانقها بعنف وشغف، قبل أن يهمس مجدّداً: «اللّعنة! ابقي!».

كان عناقه، يثير فيها عذاباً لا يوصف.

ـ لن يغدق عليك أي مكانٍ في العالم مثل السّعادة التي سنعيشها هنا... معاً.

بدا صوت تنفسه خشناً، متعباً، فتاق إليه قلبها المثقل بالمشاعر. غير أن الالتماس في همسه، لا بل الطّلب الآمر، أرسل نوبة ذعرٍ في جسمها. وراح ذهنها يرجّع صدى أمره.

ماذا يقول؟ دار العالم في عينيها، واكتسى لوناً أسود منذراً بالسوء،

فأحسّت وكأنّه رمى بها في فراغ لا نهاية له. أيتها المرأة الغبية! ماذا كنت تتوقعين؟ ألم تعرفي في قرارة نفسك أن الحال ستؤول إلى ذلك؟ ألم تعرفي لماذا كنت تخشين الاقتراب منه؟.

إن مارك رجلٌ قد اتّخذ لنفسه موطناً، مأوى يلتمس فيه الرّاحة، وهو لا يرغب إلاّ في حياةٍ تقليدية، وزوجة مثالية. إنه يفتقد لروح المغامرة والتّوق الدّائم إلى المجهول. لا بل هو إنسانٌ مسمرٌ في مكانه، يخفّف عبء من حوله، ليلاً نهاراً! وكنت تعرفين ذلك تمام المعرفة منذ البداية، أيتها الغبية!.

استبد بها الغضب من نفسها، إذ سمحت لهذا الضعف المجنون أن يتحكّم بها. ثم دفعته عنها بعنفٍ، وصرخت: «ابتعد.. ابتعد عنّي.. اذهب لتدرس ملفاتك!».

تركها بسرعةٍ، ولمّا تعثرت قدمها، سدّدت نحوه اصبع الاتهام.

ـ أنت تعرف طبيعتي يا مارك، وتعرف طموحي! كنت تعرف ذلك منذ البداية.

وبعد أن أخذت نفساً عميقاً، تابعت: «إن حياتي مرسومةٌ بالتفصيل، وحياتك منظمةٌ كذلك. حسناً، فلنعترف أن سحراً غريباً فيك، أو فيّ، يشدّني إليك، أو يجذبك إليّ. إنّما، لا تقع أسير هذا، فأنا لست من النوع الذي يحب الحياة المنزلية الآمنة!».

ثم دفنت يداً مرتجفةً في شعرها، وساد صمتٌ لم يتخلله إلا خشخشة الحلى في سوارها. ورفع مارك رأسه إليها والتّجهم مرتسم على وجهه، ثم استقام وهو يطبق أسنانه.

حذّرته، وقد أزعجتها نبرة الالتماس في صوتها: «إيّاك أن تطلب مني البقاء! ماذا كنت لتقبل لو إنّي طلبت منك الرّحيل معي؟».

نظر إليها ووميضٌ من الغضب في عينيه، ثم سأل بخشونة: «وأين عساي أذهب؟ ولماذا؟ إن حياتي هنا».

رغم أن جوابه لم يفاجئها، لكنّها شعرت بوخزةٍ في أنحاء جسدها. وما لبثت أن تمتمت: «هذا ما أعنيه تماماً».

ثم ولّت مدبرة. صحيحٌ أنها كانت تمشي ببطءٍ وبشقّ النفس، لكنها رحلت أخيراً.

ظلّ مارك مستلقياً مدّة طويلة، وعيناه تسافران في الفراغ. حين أدرك أين هو وماذا اقترف، كانت الشّمس تشرف على المغيب. تطلّع إلى القرص النّاري بعينين شبه مغمضتين، ثم هزّ رأسه وقد راعته تصرفاته. لقد جاهد طيلة النهار ليتجنب ميمي، وحاول ألا يشغل فكره بها. وحين فرغ من أعماله كلّها، راح يهيم في أنحاء الجزيرة على غير هدى. إذاً، لماذا قرّر القدر أن يخدعه بهذا الشكل؟ لماذا دفعها إلى التنزه هنا؟ ولماذا كلّمها، لماذا أعلن عن حضوره؟ ذلك كان خطأه الأوّل.

لماذا طلب منها تذكاراً؟ هذا خطؤه الثاني.

أغمض عينيه، وأفلتت منه شتيمة. لقد.. دفعها فعلاً إلى معانقته. أرادها أن تعانقه. فما إن دنت منه، وهي ترسم تلك الابتسامة الماكرة على وجهها، حتى أجبرها على عناقه. لم يكن يؤمن فعلاً بالتواصل الذهني، لكن بدا واضحاً أنها لم تنوِ أن تقدم على ذلك، إلا بعد أن اخترق صراخه الصامت حاجز عقلها.

لم يتصوّر نفسه يوماً رجلاً مندفعاً أو متهوراً، لكنه قام للتو، والله شاهد، على طلب يد هذه المرأة!.

ـ أنت رجلٌ مريض! تمالك نفسك. لا يطلب الرّجال الزواج من النساء على نحوٍ غير متوقّع، لا سيّما حين يدركون تفاهة هذه الفكرة!.

ـ إلى من تتكلّم؟.

رفع مارك بصره، فوقع على جايك وهو يتأبط ذراع سوزان. كان كلاهما ينظر إليه بفضول. قال مارك وهو يحاول أن يستعيد رباطة جأشه: «لم أتوقع أن أراكما هنا في مثل هذه السّاعة».

أفلتت سوزان ذراع زوجها، ثم اتجهت نحو مارك، وهي ترمقه بنظرةٍ انتقادية. وبعد أن نفضت قميصه، سألته: «ماذا جرى لك؟ أكنت تتقلّب على الوحل؟».

حين سمع سؤال سوزان، أحس بحرارةٍ تجتاح عنقه. وارتجل جواباً وهو عاجزٌ عن مواجهة عينيها: «لقد وقعت».

ارتفع صوت جايك بنبرةٍ مريبةٍ: «أحقاً؟ وعلى من وقعت؟».

تطلّع مارك إلى أخيه، وهو يوجس خيفةً. أيعقل أنهما التقيا ميمي؟ وما لبث أن سأل، وكلّ همه أن يبدّل الموضوع: «ماذا تفعلان هنا الآن؟ إن الظلام يخيّم على المكان».

كشفت أمارات جايك عن تسليةٍ هدّدت راحة بال مارك. وقال: «يبدو أن ميمي... وقعت بدورها».

أخذ جايك يراقب أخيه بابتسامة من كشف سرّاً، ثم أردف: «من العجيب أن كلاكما أخرقٌ بهذا الشكل».

منحت سوزان مارك نظرةً رقيقة، ثم كتّفت يديها، وبعد برهةٍ، فتحت فاها، وتمتمت: «عزيزي مارك، لمَ لا تنضم إلينا على مائدة العشاء؟».

ابتلع ريقه بصعوبة، ثم دسّ يديه في جيبيه، وأجاب بسرعةٍ: «لا أظن ذلك... عليّ أن أحضّر ملفات عملٍ ما...».

وسرعان ما أجفل. صحيحٌ أنه تلفظ بأول فكرةٍ خطرت على باله، ولكنها كانت فكرةً سيئةً جداً.

أحاط جايك بذراعه كتفي سوزان. وما لبث أن أومأ، وفي عينيه وميضُ مكرٍ جليّ.

ـ أقلت ملفات؟ حسناً، إن أسرعت، بإمكانك أن تعدّ «ملفها» فيما هي تستحم.

اجتاح العبوس وجه مارك، وقد زعزعته صورة ميمي. أحسّ أنه يخسر شجاعته شيئاً فشيئاً، فلم يكن منه إلا أن استقام على رجليه، وصرّ أسنانه.

ربّاه! لماذا يشعر أنه أكبر أحمقٍ في العالم؟ إنه يستحق هذه السخرية! كيف يطلب يد أقلّ من يلائمه في هذا العالم؟ لم تخطىء ميمي البتة في صراخها، في غضبها، بل في رفضها له ولغبائه.

إنّما، مهما حاول أن يبرّر رفضها أو أن يقنع نفسه به، فما زال يولّد في قلبه ألواناً من العذاب!

* * *

www.elromance.com

٨ ـ ضحيّة الفراولة

جلست ميمي عند الشاطىء، بعد أن أضرمت النّار، عساها تبعث فيها بعضاً من الدفء. كانت بحاجةٍ فعلاً إلى هذه السّاعات تقضيها وحيدةً تحت السّماء المرصعة بالنجوم. انقلبت حياتها مؤخراً رأساً على عقب، وساد فيها الاضطراب والفوضى. وها هي الآن عالقةٌ في جزيرة يسكنها أصحاب ثروةٍ طائلة. أنّى لها أن تعرف أنّها ستجدهم بهذه الطيبة والتواضع؟ لم تحس يوماً بمثل هذه الراحة مع أناسٍ منذ وفاة والديها. ومما يثير الاستغراب أن أيّاً من أفراد آل ميريت لم ينشد المغامرات في ما وراء البحار، رغم أن الأموال التي يملكها أفراد الأسرة تسمح لهم بالسفر إلى أي مكانٍ قد تشتهيه نفوسهم.

فجأة، أحسّت بحكّةٍ في رجلها، فدفنت قدميها العاريتين في الرّمل، وعلا العبوس وجهها. فكّرت في مارك. كم هو مختلفٌ عنها، لا يعقل أبداً أن تغرم به!.

لن تترك عناقه المؤثر وصوته العميق وهو يطلب منها البقاء يثنيها عن الرّحيل! فلو لازمت مكاناً واحداً مدة طويلة، لفقدت صوابها. وستتعلّم أن تكرهه لأنه كبح طموحها.

إنّها بحاجةٍ ماسّةٍ إلى مجالسة النجوم، عساها تستعيد رباطة جأشها. فقد خاضت اليوم تجربةً مخيفة. وأدركت أنّ تعلقها بهذه العائلة لن يجرّها إلاّ إلى مزيدٍ من المشاكل.

فركت ميمي وجنتها بعد أن شعرت بوخز طفيف، ثم تنهدت وهي تحاول أن تطرد عنها طيف الذكرى. تباً لها، إنها تشعر بالراحة والرّضا في هذا المكان! عليها أن ترحل عن هذه الجزيرة! عليها أن تعود إلى أسفارها! وقلبها لم يختبر حتّى الآن الكثير من التّجارب.

تمتمت: «يا للمصيبة التي ألمت بك يا ميمي! أكان من الضروري أن تصطدمي بـ. . .».

تركت الكلمات تموت على لسانها، وأغمضت عينيها بقوة، لتمنع أفكارها من الهرب نحو مارك.

ثم أطلقت تنهيدةً تنطوي على مزيج من الكآبة والتّعب، قبل أن تستلقي على ظهرها، وتتخذ الرمل الناعم وسادةً. وإذا بشعورٍ بالذنب يساورها، لأنها أهملت مساعدة مارك في تضميد جراح سكارى آخر الليل. هذا لا يعدّ قلة مراعاةٍ لمشاعره فحسب، بل يعتبر تقصيراً أيضاً، لا سيّما وأنها وعدت بمساعدته بانتظار أن يوظف ممرضةً حقيقية. ولكن، تباً له، فليتدبر أمره لليلةٍ واحدةٍ فقط! لقد تجرّأ ذلك الوغد وطلب منها أن. . .

وارتفع صوتٌ محذرٌ في داخلها: كفى يا ميمي! توقّفي عن التفكير في هذا الرجل! فكّري في ما تريدين، ما عدا هذا الرّجل!.

ـ ما تظنّين نفسك فاعلة هنا؟.

أجفلها سؤال مارك الفظّ، فاستدارت نحوه وأجابت: «يا إلهي يا دكتور! أعليك أن تظهر دائماً كالأشباح؟ ستسبب لي نوبةً قلبية!».

كانت تحاول أن تتبيّن مكانه في هذا اللّيل المعتم، لمّا عاودتها الحكّة مجدداً. لكن، عندما كشفت النار عن قامة مارك الفارعة، نسيت أمر حكاكها، ونسيت حاجتها إلى مغادرة الجزيرة، ولم يبقَ في ذهنها إلا فكرةٌ واحدة: منظر مارك وهو يخرج من العتمة.

كان وهج النيران قد أضفى عليه جاذبيةً لا توصف، فأضاء وجهه وصدره العاري حتّى برزت كلّ عضلةٍ من عضلاته المفتولة. كان حافي

القدمين فخيّل إليها أنّ طارئاً انتشله من سريره على وجه السّرعة. فما كان منها إلا أن استقامت في جلستها، وهي تنفض الرّمل عن يديها:

ـ هل طرأت حالةٌ مستعجلة؟ أمن مريضٍ يحتاج إلينا؟.

ـ كلاّ.

حين أمسى على بعد خطواتٍ منها، توقّف فجأةً وحدّق في النّار المتقدة، قبل أن يعبس في وجهها ويتابع: «ماذا تفعلين؟».

بادلته العبوس. أمن الضروري أن يتألّق بهاءً؟ ثم طردت هذه الأفكار من رأسها، ومرّرت يدها على كتفها حيث شعرت بوخزةٍ خفيفة. وردّت: «إنّي أهتم بشؤوني الخاصّة يا دكتور. كثيرٌ من النّاس يقومون بذلك. يجدر بك أن تحاول ذلك في بعض الأحيان».

ـ يسعدني ذلك. لكنّ رجال المراقبة لا ينفكّون يتصلون بي بشأن مغامرتك الأخيرة.

أغمضت عينيها، وقاومت رغبةً في التقدّم نحو الكاميرا والصّراخ أمام العدسة.

ـ بحق الجحيم، إني لا ألفت نظر سفينة قراصنة! أمن الخطأ أن أحظى بقسطٍ من الرّاحة؟ ألا يستطيع رجالك المجانين أن يتركوني وشأني ولو لمرّة؟

دسّ يديه في جيبه، وتقدّم نحوها، وما لبث أن أطلق زفيراً يعتريه التعب: «هل تنوين أن تقضي اللّيل في العراء؟».

جلست القرفصاء، ثم مدّت يدها بشرود إلى كاحلها، وأخذت تفركها. تمتمت، وهي تلتفت نحو البحر: «لست أدري... وماذا لو فعلت؟».

أجاب بهدوء: «اسمعي يا ميمي. إني آسف بشأن ما حدث هذا العصر».

ولمّا سكت عن الكلام، ساد سكونٌ عميق لم يخترقه إلا هدير الأمواج في البعيد. قال أخيراً: «لا أدري ماذا انتابني!».

أدارت وجهها قليلاً، وهي تفكر ملياً في الأمر. وتمتمت: «إنه ماضٍ وانقضى. ما كان يجدر بي أن أعانقك».

ظلّت تحدّق فيه وهي عاجزة عن الإشاحة بوجهها. يا لتلك الهفوة التي ارتكبتها!.

ثم أضافت: «إن كنت لا تمانع، أفضّل أن أبقى وحدي».

لمّا لم يجبها، التفتت إليه حتى التقت عيناهما. شيئاً فشيئاً، بدأت ملامحه تتغيّر، فاتّسعت عيناه، واكتسى وجهه بالهم والتجهم. ولمّا فتح فمه أخيراً، أبصرها وهي تفرك ذقنها بشدّة.

قرّب وجهها من النّار، وهتف: «لا تتحرّكي!».

ـ في ماذا تحدّق؟ هل طال أنفي؟

وفجأةً، تذكّرت هذه النظرة. فبعد أسبوعٍ قضته في العمل معه، أصبحت تعرف نظرة الطبيب المعاين.

ـ ما الأمر؟.

أنعم النّظر في ذراعيها وساقيها، ثم أجابها: «إن البثور تكسو وجهك... هل تشعرين بحكاكٍ؟».

حرّرت يدها من قبضته وهي تعبس. كانت لمسته مثيرة حتى وهو يرتدي قناع الطّبيب الرّزين. حانت منها التفاتةٌ إلى ذراعيها فإلى قدميها ثم صرخت: «آه، لا!».

ثم رفعت رأسها لتواجه عينيه القلقتين، وأضافت: «لا شكّ أن التحلية احتوت على الفراولة!».

راحت تلوم نفسها لأنّها أغفلت هذه المسألة، رغم أن التحلية كانت لذيذةً جداً. وبعد أن مررت يدها في شعرها، تابعت: «إنه ضربٌ من ضروب الذكاء اقترفته فيما الدّواء يكاد ينفد مني!».

أجابها وهو يهدّىء من روعها: «لا تخافي. من حسن الحظ أنني طبيبٌ وأملك أدويةً أيضاً».

ثم قبض على معصمها وجرّها نحو الكوخ، أما هي، فأخذت تحك عنقها، فيما كانت تسير في أعقابه باضطرابٍ بالغ، وهي تئن.

ما إن بلغا الكوخ، حتى جذبها إلى الداخل، وأخذ يسحبها نحو الحمّام، وهو يقول: «اصمتي، بالله عليك. والآن، خذي حمّاماً معتدل، ونظفي عنك الرّمل، قبل أن أعاينك».

كانت كلّ ثانيةٍ تمرّ، تزيد من حدّة الحكة في جلدها. فما كان منها إلا أن دفعته بمزيج من العنف والشر إلى الخارج وهي تومىء برأسها: «حسناً يا دكتور، لكن عليّ أن أحذرك. إني أمسي غريبة الأطوار حين أشعر بتوعك. ولن أتخلّص من هذا الخبل إلا بمعجزة».

لم يستطع أن يكبت ابتسامةً ساخرة، وأجاب: «يا لسوء حظي. هذا هو سبب غرابتك إذاً!».

وقبل أن يتوارى نهائياً خلف الباب، لمحت التواءً مريباً في شفتيه. بعد عشر دقائق، ألقت على نفسها نظرةً في المرآة، وهي تسرّح شعرها المبلّل. فعبست، كانت تشعر بنوبةٍ جنونية من الحكّ، وكأنها ضحية هجوم نحلٍ ساحق.

عقصت شعرها وهي تشعر بالاشمئزاز من نفسها، ثم أخذت نفساً عميقاً استعداداً لما هو آتٍ. لا شكّ أن ملمس الثياب على جسدها، سيعذبها عذاباً مريراً، لكن، مع وجود الطبيب الجذاب في الجوار، أتملك فعلاً خياراً؟.

ولما خرجت من الحمام أخيراً، توقّفت بغتةً حين رأت مارك مستنداً إلى الحائط وفي يده حقنةٌ. ما إن وقع عليها نظره، حتى تقدّم وراح يعاين بثورها المتورمة.

ـ يبدو أن الحالة تشتدّ سوءاً.

كشّرت وهي تكشف له عن ذراعها: «لا، أهذه حقنةٌ أخرى؟ لقد غرزت فيّ حتّى الآن ما لم يغرزه أيّ رجلٍ آخر».

وما إن تفوهت بتلك الكلمات، حتى أدركت فداحة المعنى الذي ينطوي عليها فسارعت تفسّر:

ـ بل... أقصد...

قاطعها مكفهر الوجه: «لا داعي للشرح... إن كان من أحد يفهم قصدك، فهو أنا».

ثم أشاح بوجهه ناحية المطبخ، وأردف: «من الأفضل أن أحقنك حيث الإضاءة جيّدة».

ولمّا استدار، تبعته وهي تشعر بثقلٍ في قدميها. وما لبثت أن تمتمت: «يا لسعادتي!».

صحيح أنها لم ترد أيّ علاقةٍ رومانسية بينهما، لكن أمن الضروري أن يراها بتلك البثور المقرفة؟.

قبضت على منشفتها بإحكام، وهي تجلس بحذرٍ على أحد كراسيّ المطبخ، وشعورٌ بالضيق يتحكّم بها. حتى الجلوس بات في نظرها مشقةً!.

نظف مارك ذراعها بالمطهر وقال: «لن يستغرق الأمر إلاّ ثوانٍ!».

أسندت مرفقها إلى الطاولة برفقٍ، ثم أرخت رأسها فوق يدها، قائلة: «بما أنني على وشك الموت احتضاراً، لا أظن أن وخزة ابرةٍ ستحدث فرقاً».

لفتت انتباهها ضحكةٌ خافتة، لكن ابتسامته سرعان ما استحالت تجهماً ملحوظاً وهو يصب اهتمامه على عمله. وما كان منها إلاّ أن أغمضت عينيها وانتظرت بترقبٍ.

بعد مضي دقيقةٍ، تناهى إليها صوته: «انتهينا... ينبغي أن تشعري بتحسنٍ ابتداءً من الآن».

أخذت تحرّك يدها، وقالت: «أتمانع إن جلست هنا مستسلمةً لملاك الموت؟».

ـ أخشى أنني أمانع، فنحن لم ننته بعد.

أحسّت بلمساته على معصمها. فصمتت قليلاً، وراحت تراقبه وهو يسحب كرسيّها.

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟.

ـ إلى غرفة المعاينة.

تردّدت لبرهة، قبل أن يرغمها على الوقوف، وسألته: «لماذا؟».

أدار رأسه، وعلى وجهه ابتسامةٌ تفتقر للظَّرف: «أملك مرهماً موضعياً قد يشفيك».

ـ أحقاً؟.

عاد يجرّها وهو يقول: «لقد شهد الطب تطوراً ملحوظاً يا ميمي. إن تجرأت على الخروج من البرية، لعرفت ذلك».

أعادت تثبيت المنشفة حول عنقها بحركةٍ انفعالية، ولم تملك إلاّ أن تتبعه في صمتٍ.

ـ سأعطيك أنبوبين، لتأخذيهما معك عند رحيلك، بالإضافة إلى بعض الحبوب التي تعطي نتيجةً فعالة، إنما ليس بالسرعة نفسها.

أحسّت بيحرٍ من المشاعر يتخبط في داخلها. إنّه طبيبٌ، ويتصرّف كأيّ طبيبٍ عادي. كأيّ طبيبٍ محترفٍ مع فرقٍ بسيط.

لقد عانقها هذا العصر، وبدا عناقه غايةً في. . في. . غاية الرّوعة، وتلك الكلمة الوحيدة التي تصف باختصارٍ ما حدث. إنه فعلاً «طبيب الرّوعة».

التفت نحوها بعد أن كان يبحث في خزانة الأدوية، وسألها: «أقلت شيئاً؟».

لعنت نفسها في سرّها، وحكّت ذقنها قبل أن تبادر إلى الإجابة: «لا. . كنت أتألّم وحسب».

ولمّا أدار لها ظهره، قرصت نفسها عقاباً على ثرثرتها.

ماذا لو سمعها فعلاً؟ أحسّت أن تصميم مارك على استخدام هذا

المكان، يخفي رغبته في الحفاظ على علاقة مهنية خالية من العواطف. شكرته في سرّها على ذلك، فهي لا تحتاج، في الوقت الحالي، إلا إلى طبيبٍ صارمٍ متحفظ.

وبعد برهةٍ إضافية، عاد يأمرها ثانيةً: «استلقي على بطنك».

حدّقت فيه برعب، وتلعثمت: «بإمكاني. . . فركه بنفسي».

كان يسكب بعضاً من المرهم في راحته، فتوقّف فجأة، وهو ينظر إليها كمن يفكّر ملياً.

ـ بالطبع. إنّما استلقي وحسب. . . لن أفرك إلا ظهرك.

ـ لكن. . .

قاطعها قائلاً: «استلقي يا ميمي. لن أهاجمك. سبق واعتذرت عمّا جرى اليوم. فماذا تريدين منّي بعد؟ أن أكتب اعتذاري بريشةٍ مغمسةٍ في دمي؟».

رأت وميض الغضب يتّقد في عينيه، لكنّ مظهره لم يفقد شيئاً من إثارته. ولم يبعد نظره عنها إلا ليعود ويرمقها من جديد. فتح فمه ليتكلّم، ثم عبس. حاول أن يتكلّم من جديد، لكنّه ضمّ شفتيه وكأن ذهنه استقرّ على الصمت أخيراً.

لاطفته قائلة: «ماذا؟».

رمقها بنظرةٍ أوقفت خفقات قلبها، ثم هزّ رأسه وأجاب: «استلقي وحسب. لقد تأخر الوقت وغداً يوم عمل».

لم تكشف أماراته عن أيّ رغبةٍ في النقاش، فنفذت ما أمرها به.

ـ عليك أن ترخي هذه المنشفة، وإلاّ، فكيف عساي أفرك ظهرك؟.

استندت إلى مرفقيها، ثم التفتت ووجّهت إليه نظرةً حذرة.

فرفع نظره إلى وجهها وتمتم: «امنحيني فرصةً، فأنا تعبٌ».

أطبقت فكّيها، عساها تمنع الكلمات اللاّذعة: «يا لك من عابثٍ يا حضرة الطبيب مبريت».

اعتمل شعورٌ غريبٌ في صدرها، ثم أطلقت تنهيدةً عميقة وأرخت المنشفة قليلاً.

ولمّا سمعته يتنحنح، حمدت الله لأنه لم يعلّق على جوابها المتهور. لا تذكر ميمي أنها شعرت بهذا الاحراج والقلق من قبل. وما كان منها إلاّ أن أغمضت عينيها بشدّة.

ما إن مسّتها أنامله برقة، حتى ارتعشت. فسألها: «هل آلمك هذا؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة، وأجابته: «كلا. . . بل أجفلتني وحسب».

- ميمي، من الضروري أن ألمسك كي أفرك المرهم. ظننت أنك فهمت ذلك.

ما كان منها إلاّ أن كشرت ثم أغمضت عينيها ثانيةً. بالطّبع عرفت أنه سيلمسها، لكنّها لم تعرف أن لمسته ستكون بهذه. . . الإثارة. لم تفهم كيف خطرت في بالها كلمة الإثارة في خضم الآلام، وما لبث أن تمتمت: «فهمت ذلك فعلاً. قم بعملك وحسب».

تنقلت أنامله فوق جسدها برقة، فلامست كتفيها أولاً، ثم تحرّكت على طول ظهرها برقّةٍ وسحر. كان للمرهم أثرٌ مخدّر فعّال أوقف الحكة اللعينة في الحال. وأصبحت تشعر بتحسّنٍ في كامل جسدها.

أما ثقل يديه فكان ملطفاً ومغرياً إلى حدٍّ كبير. ففي يديه قوةٌ وبراعة لا مثيل لها. تنهدت وإحساسٌ رائع يخالجها.

فجأةً، رفع يده الدّافئة عنها، فترك فيها شعوراً من القلق. ترى لمَ توقّف؟ وبعد برهة اضطراب، أحسّت بحرارةٍ باردةٍ تتغلغل في ظهرها، فابتسمت وقد أغدق عليها المرهم راحةً تامة.

حين عاد إلى مهمته الرقيقة، شعرت بوخزٍ خفيفٍ، وخزٍ من نوعٍ آخر. لم تعد تشعر بالارتباك أو الإحراج، بل بالانتعاش.

- مارك. . .

قاطعها بصوتٍ أجش: «نعم. . . حسناً. . . يكفي هذا».

وقبل أن تتمكّن من الالتفات إليه، كان قد غادر الغرفة.

حين استعادت رشدها، لم تملك إلا أن تحدّق في البابِ المغلق. وفجأةً، وجدت دمعةٌ وحيدة طريقها إلى خدّها، فانسابت حتى حطت على الملاءة التي تغطّي طاولة المعاينة.

من حسن حظ ميمي وجسدها الحساس للفراولة، أن العيادة لم تزدحم بالمرضى يوم الاثنين. ولمّا حلّت الساعة الخامسة، اغتسل مارك، واستعدّ ليعدّ العشاء، فيما راحت ميمي تضع المرهم على جسدها. حين فرغت من مهمتها أخيراً، ألقت نظرةً على صورتها المعكوسة في المرآة.

عشراتٌ من البثور الحمراء كست وجهها حتى شوهته، لكن على الأقل نجا شعرها من هذه العيوب الحمراء. أما جفناها فمنتفخان، حتّى يخيّل للمرء أنها تلقّت لكمةً على عينيها. ولم يقتصر الأمر على ذلك وحسب، فبالإضافة إلى البثور والجفنين المتورمين، انبعثت منها رائحة المرهم. . فأحسّت وكأنها وقعت في وعاءٍ كبير من اللّيموناضة الفاسدة.

كان مظهرها المرعب ورائحتها النّامة قد بعثا الخوف في أكثر من مريضٍ ذلك اليوم. لكن، ما إن قيل للمرضى إن ما تعانيه هو حساسيةٌ ليس إلاّ، حتى تنفسوا الصّعداء.

ولمّا كانت قد ضاقت ذرعاً بوجهها الذي اجتاحته البثور، قرّرت أن تنصرف إلى اعداد العشاء عساها تروّح عن نفسها. لكنها تفضّل أن تسير على الجمر المتّقد على التواجد قرب مارك. وقد عانت في هذا اليوم من الضغط ما يكفيها.

كان مارك قد حافظ على سلوكٍ مهنيّ طيلة النهار، وكأنّه بنى حاجزاً منيعاً بينها وبين أفكاره.

قرّرت ارتداء قناع اللامبالاة والتجرد نفسه، فخرجت من الحمام متوجهةً نحو المطبخ. وعندما دنت من الغرفة، توقّفت فجأة وقد أبصرت زائرةً جالسة إلى مائدة المطبخ. تفحصتها ميمي من رأسها إلى أخمص

قدميها، فلم تغفل عن شعرها الرائع، وقد عقصته بعناية، ولم تنسَ أن تتأمل حذاءها اللّماع العالي الكعبين.

لاحظت ميمي أيضاً أنها وضعت ساقيها الطويلتين الرشيقتين رجلاً فوق رجل بطريقةٍ مغرية. أما رأسها فملتفتٌ نحو مارك الذي اتكأ بتكاسلٍ إلى الخزانة، وبدا مستغرقاً في حديثٍ رسم ابتسامةً عريضة على وجهه.

وبدل أن تحيّيها ميمي أو أن تطلب منها الرّحيل، اكتفت بتساؤلٍ استطاعت أخيراً أن تطرحه:

ـ ألديك ضيوف؟.

ولكن، كم ودّت فعلاً أن تصرخ في وجهها: «ارحلي!».

ما إن التفتت المرأة نحوها، حتى تلاشى تعبيرها المرح واتّسعت عيناها وكأنها أبصرت للتّو وحشاً.

ولما أدركت أن ردة فعلها قد تعتبر إهانة، سارعت تبتسم ثم قالت بصوتٍ أجش: «سامحيني، لقد أجفلتني».

أشار مارك إلى ميمي، وقال: «إينيد، هذه مساعدتي المؤقتة، ميمي بابتيست. ميمي، أقدّم لك اينيد بلاك. لقد عملنا سوياً في بوسطن».

ابتسمت ميمي بتكلّفٍ وأجابت: «أحقاً؟».

أما إينيد، فمدّت يدها وكأنها تنتظر من ميمي أن تقبّلها، ثم قالت بتهذيبٍ: «تشرفت بلقائك يا ميمي... علمت أنّ لديك حساسية على الفراولة».

تقدّمت ميمي نحو المائدة، وسلّمت على إينيد مكرهة. ثم ردت بمزاح وهي تعود خطوةً إلى الوراء: «حساسية على الفراولة؟ ظننت أن هرّة تصيد الجرذان عضتني ما بين العينين تماماً».

سألها مارك: «كيف حالك والحكّة؟».

التفتت إليه وأجابت: «إنها محتملةٌ».

الحق يقال، لقد قلّص عذابها إلى الثلث! وما لبث أن سألته: «إنه دواءٌ

ناجح، كيف اكتشفت وجوده؟».

لوى فمه بابتسامةٍ: «إني أجمع المعلومات من هنا وهناك، كمدرسة الطّب مثلاً».

كم أحسّت بالغباء، بل بالغباء البالغ. ولعلّ ظهور إينيد بلاك المفاجىء قد أثر فيها لسببٍ أو لآخر.

توجّه ماركُ نحو إينيد، ثم ألقى يده على كتفها بحميمية طعنت ميمي بسكين الغيرة.

ـ لقد عرّجت إينيد عليّ وهي في طريقها لحضور زفاف أختها.

رمقت ميمي إينيد، وهتفت: «أحقاً؟».

لكنّها في الواقع، كانت تأمر نفسها بصمتٍ: قولي إنّ هذا لرائعٌ... عليك أن تهنئي ضيفة مارك!.

لكنّ سرّاً غامضاً أطبق فكّيها. ترى، لمَ تتصرّف كامرأةٍ غيّورة؟ فمارك لا يعدّ من ممتلكاتها، وهذا أقل ما تتمناه حتّى!.

ربّتت إينيد على يد مارك، ثم رفعت وجهها، ومنحته ابتسامةً رقيقة.

ـ رغم أن بيتك لم يكن في طريقي، إنّما كان عليّ أن أعرّج عليك، وأتفقد حالك في حياة الرّيف.

ثم استدارت إلى ميمي، ويدها ما زالت تقبض على يد مارك: «لقد حطم مارك الكثير من القلوب حين ترك المدينة».

تمتمت ميمي مجدّداً: «حقاً».

في الواقع، كانت تقاوم رغبةً في سؤالها إن كان مارك قد جرح قلبها أيضاً. فإن فعل، يبدو أن إينيد لم تستسلم للحسرة. أحسّت ميمي أن هذه المرأة قد تسلحّت بهدف اصطياد فريستها. فثوبها المثير وزينتها وحليها، أسلحةٌ لتجذب مارك ميريت وتوقعه في الشرَك. كانت الإشارات من الوضوح ما أدهش ميمي أن مارك لم ينتبه لها. لكن، الرّجال لا يلاحظون غالباً نوايا النساء وسلوكهن المستتر.

لما ضاقت عينا صهباء الشعر قليلاً، أدركت ميمي أن إينيد عرفت أن ميمي كشفت سرّها! فابتسمت في سرّها، وسألتها بصوتٍ لم يعكس توترها: «إذاً، كم ستمكثين هنا؟».

ـ هذا المساء فقط.

رمقت مارك وهي تطرف بأهدابها، ثم شدّت على أصابعه، ونظرها لا يفارقه: «أرجو ألاّ تكون مشغولاً».

فغمزها، وسارع يجيب: «أنا حرٌّ كالعصفور!».

شعرت ميمي بشيء من الاشمئزاز. فقد مر أسبوعان على وجودها هنا، لم يكن فيهما مارك حرّاً ولو لليلة. أما الآن، فقد أضحى، بسحر ساحرٍ، حرّاً. . كل ذلك من أجل عيني إينيد الجميلتين! يا له من ساذجٍ مغفّلٍ أبله!.

غير أنها عادت تذكّر نفسها: لا. . هذا جنونٌ، فمارك ليس بأبلهٍ! وهو لم يقع في المصيدة إلاّ لأنّه يريد ذلك. ألم يوضح لها أنه ما عاد إلى جزيرة ميريت إلاّ بهدف الاستقرار والزواج وإنشاء عائلةٍ؟ إن نظرةً من عيني إينيد كفيلةٌ لتؤكد لميمي أن هذا هو هدف تلك المرأة أيضاً.

عادت إينيد إلى جلستها المغرية، ووجهها، لسوء حظ ميمي، وضّاحٌ خالٍ من البثور. وأردفت:

ـ إليك فكرتي. ما رأيك بتناول العشاء في بورتلاند؟ وإن حالفني الحظ، بإمكانك أن توصلني إلى المطار. لن تقلع الطائرة إلاّ عند منتصف الليل.

ورغم أن ميمي شعرت بضرورة الانصراف، إلا أنها أحجمت عن ذلك. كما أنها تشعر بالجوع، ويبدو أنها ستعدّ العشاء كما يحلو لها هذا المساء، بما أن مارك لن يكون حاضراً.

وهنا، تناهى إليها صوته: «من الأفضل أن أبدّل ملابسي».

سمعت إينيد وهي ترد: «لا تكن سخيفاً، فأنت رائعٌ!».

ثم مرّرت يدها فوق ثنايا ثوبها، وتابعت: «كما أنني ألبس هذا الرّداء القديم».

حملقت فيها ميمي. إن لم يخب ظنّها، فإن رداءها القديم هذا لا يعود إلى أبعد من الأمس.

ابتسم مارك ابتسامةً عريضة، اعتصرت قلب ميمي، إذ خصّ إينيد بها! وحين اختلس النّظر إليها أخيراً، أحسّت بوقع هاتين العينين، حتّى كادت ترتدّ إلى الوراء.

ـ سأحمل معي هاتفي الخلوي، فإن طرأت حالةٌ مستعجلة، أعلميني.

ثم رمقها بنظرةٍ متفحصة انتقادية، وأضاف: «يبدو أن التورم حول عينيك قد ازداد سوءاً. لن يضرّك إن أويت باكراً إلى الفراش».

فما كان منها إلا أن كتّفت يديها، ثم أومأت برأسها برزانةٍ ساخرة وأجابت: «حاضر يا والدي».

بقي ينظر إليها لثوانٍ طويلة، قبل أن يمسك بذراع إينيد ويقول لها: «هل أنت جاهزة؟».

منحته إينيد بسمةً ساحرة، ثم شدّت على يده وكأنها تمسك إحدى ملكياتها.

ـ طبعاً.

راقبتهما ميمي وهما يغادران المطبخ. بعدئذٍ، سمعت صوت الباب الأمامي يفتح ثم يغلق. لقد ذهبا بكلّ بساطة! شعرت وكأنّها جثّةٌ هامدة، فارتمت على أحد الكراسي. وفجأةً، قفزت فوفو إلى حضنها بقوةٍ أرسلت فيها موجاتٍ من الألم، فما كان من ميمي إلا أن عبست.

وراحت تتمتم: إن أيّ رجلٍ عاقلٍ يفضّل أن يخرج بصحبة امرأةٍ جذابةٍ شغوفةٍ به، على أن يلازم البيتَ مع امرأةٍ كثيرة التذمر لها شكل وحشٍ ورائحته.

لم تبرح مكانها لفترةٍ طويلة، بل بقيت تمسّد ظهر فوفو بشرودٍ، وهي

تردّد على نفسها أنها قلّما تعبأ بما سيدور بين مارك وإينيد حتى منتصف الليل. حاولت بلا جدوى أن تطرد صورهما وهما يتعانقان بجنونٍ، لكنّها سرعان ما باتت ضحيةً موجةٍ من الغيرة قضت على بقية التعقل فيها.

أخيراً، تمتمت: هل أعتبر سيئة إن تمنيت أن تكسر هذه المرأة ذراعها الليلة؟.

عطست الكلبة، فما كان من ميمي إلاّ أن تنهّدت بحزنٍ، وتمتمت: ظننت ذلك أيضاً.

***

٩ ـ كيف أنساه؟

أدرك مارك أن الغباء وحده دفعه إلى الخروج على العشاء مع إينيد. وما إن استلم سيارته من المرآب، حتى راح يلعن نفسه على تصرّفه المتهور. لم يكن غاضباً لأنه أنفق ساعات عمله على مواعيد خاصةٍ، بل لأنه يدرك تماماً هدف إينيد، ولأنّ فكرة اللهو مع فتاةٍ لعوب راقت له حينها. فعلى أيّ حالٍ، لقد نبذته ميمي، حين تصرّف كمعتوهٍ يناشد حبّها. وهي لم تزرع فيه الاضطراب وحسب، بل أثبطت عزيمته، وورّطته في مشاكل هو في غنىً عنها، وهذا شعورٌ لم يساوره من قبل. وهكذا، ارتأى أن العلاج الأنجع هو قبول عرض إينيد المغري.

تبّاً! كيف قضى الأمسية مع إينيد وهو يتمنّى أن يكون مع مزعجةٍ بعينين متورمتين؟ كيف أمضى الوقت مشغول البال، متسائلاً إن كانت بحاجةٍ لحقنة إضافية، أو لمساعدةٍ في إعداد العشاء، وخائفاً عليها من ألمٍ في جلدها أو مشاكل في عينيها؟.

دخل الكوخ، وإذا به يرى نوراً متسللاً من المطبخ. لا بد أن ميمي نائمة! نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الثانية وعشر دقائق. ألم يأمرها بالخلود إلى النوم باكراً؟ وما لبث أن هزّ رأسه هازئاً من حماقته، وتمتم: هل تسمع كلامك يا ميريت؟ متى رضخَتْ بخنوعٍ لأي أمرٍ أعطيتها إيّاه؟.

لكنه من التعب بحيث عجز عن التفكير بصفاء. لعلّ ميمي نسيت إطفاء الضوء وحسب، أو على الأقل، هذا ما يأمله.

لم يتفاجأ كثيراً حين بلغ المطبخ ووقع نظره عليها، غير أنه اندهش من المكان الذي اختارته للجلوس. كانت حافية القدمين، وتجلس على الرّف بجانب البرّاد. أما يدها، فممتدة إلى الأمام وكأنها تمسك طبقاً شهياً للغاية وفوفو تقفز على قدميها وكأنها كلبة سيركٍ مدربة.

سأل: «ماذا يجري؟».

رمقته بنظرةٍ سريعة، فيما توقفت فوفو عن استعراضها واتّجهت نحوه مرحبةً. أما ميمي، فاكتفت بالتّحديق فيه، ثم قالت من دون أن تبتسم: «مرحباً... أوصلت للتّو؟».

استند إلى الباب، وأجاب: «أبداً، فأنا هنا منذ ساعات. لكني أهوى الاختباء في حجرة الطّعام».

التفتت إلى فوفو، وزمت شفتيها وهي تنادي الكلبة: «هيا يا فوفو، بقيت قطعةٌ أخيرة».

أجاب وهو يحاول ألا يتأمل شفتيها: «آمل أنك لا تطعمينها الحشرات».

رغم أن التّعب قد أخذ منه كلّ مأخذ، غير أنّه لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام. ترى، ما هذا الحظ السّعيد الذي أنعم عليه بامرأةٍ بوجهٍ منقطٍ وعينين منتفختين، في مطبخه وسط اللّيل؟.

رمت قطعةً من الطعام، فقفزت فوفو في الهواء لتلتقطها. وهنا، صفقت ميمي بيديها، وضحكت بابتهاج: «أحسنت يا فوفو! والآن آمل أن تنالي قسطاً من النوم».

ثم نظرت إلى مارك وأضافت: «كانت معدة فوفو تكركر بصوتٍ عالٍ، فأيقظتني، وأعددنا طبقاً من البيض».

تملكت مارك رغبةٌ متمردة في ضمّها بين ذراعيه، ثم سألها: «أعددتما

البيض؟».

قفزت ميمي إلى الأرض بخفةٍ، وحكّت ظهرها قبل أن تقول: «إن فوفو صعبة الإرضاء فعلاً، وهي ترفض أن تتناول لقمةً إلا إن رميتها إليها من العالي».

أشارت إلى الأرض الملوثة بفضلاتِ البيض المقلي، وأردفت: «تطلب منها التقاط الطعام في الهواء وقتاً لا بأس به».

ـ في العادة، تأكل فوفو طعامها من وعائها الخاص.

وفيما هو يتكلّم، تقدّم إلى وسط المطبخ ليفاجأ بميمي ترفع يدها في وجهه.

ـ إيّاك! لا تدخل قبل أن أنظف هذه الفوضى!.

سحبت المكنسة، ثم اختلست النّظر إلى مارك والتّعجب على وجهها: «أيعقل أنها كانت تأكل طعامها من وعائها؟ بالله عليك، أين روح المغامرة في ذلك؟».

كأن ملاحظتها أعادت الأمور إلى نصابها! فجأةً تلاشت الابتسامة عن وجهه، وكأنها وجهت إليه صفعةً عنيفة. وبلحظةٍ، بات واقفاً أمام ميمي، المرأة التي تجري المغامرة في دمها. تباً له، كيف نسي ذلك؟ سار نحوها بتشامخ، ونزع المكنسة من يدها، وهو يقول:

ـ سأتولى الأمر. أما أنتِ، فاذهبي للنوم... تبدين رهيبةً.

كانت قريبةً جداً حتى تكاد تلامسه. أما شعرها، فأشعثٌ ينسدل بفتنةٍ حول وجهها المنتفخ، فيما عيناها اللوزيتان متورمتان.. ورغم ذلك، ساورته في هذه اللّحظة، الرغبة في ضمّها إلى صدره بجنونٍ، ومعانقتها بعنفٍ.

لم تحرّك ميمي ساكناً، بل اكتفت برفع وجهها إليه وقد خلا تعبيرها من أي وقاحةٍ أو جراءةٍ. بدت متعبة، وقد دبّ الألم في أوصالها. رمقته بنظرةٍ سريعةٍ يصعب تحديدها، ثم همست: «تصبح على خير يا دكتور... أراك

في الصّباح».
ـ ميمـ. . . آنسة بابتيست؟
التفتت إليه وقد استحالت كآبتها تساؤلاً حذراً: «نعم؟».
ـ كيف حالك؟
كان سؤالاً فارغاً، لا يهدف إلاّ إلى تأجيل رحيلها بضع ثوانٍ. رغم ذلك، بدا لها في تلك اللّحظة طبيبها المداوي، وهذه هي أكبر درجةٍ من الحميمية يمكن أن تكتنف علاقتهما.
تنحنح قليلاً قبل أن يضيف:
ـ أتريدين مني. . . أن أعالج ظهركِ بالمرهم ثانية؟ فهذا لن يؤذي!.
تبدّلت ملامحها ببطءٍ، والتوت شفتاها بضعفٍ: «بل يؤذي يا مارك، ويؤذي جداً!».
كان الأربعاء يوم عملٍ عاديّ في المكتب. أما آثار الحساسية التي عانتها ميمي فقد تلاشت، فيما عاد جفناها إلى طبيعتهما. كما أن أسرها شارف على نهايته! فقد قابل مارك، المرشحات الثلاث الأخيرات اللّواتي أتين إلى الجزيرة. وسيتّخذ قراره بين لحظةٍ وأخرى، فتبحر هي بحلول الاثنين المقبل، ثم تطير بعدئذٍ إلى. . . أيّ مكانٍ، فهي لم تقرّر وجهتها بعد.
جلست ميمي وراء مكتبها وصبّت اهتمامها على عملها حتّى أنها بالكاد سمعت الباب يفتح. ومن غير أن ترفع نظرها، قالت: «سأتفرغ لك بعد دقيقة».
فارتفع صوتٌ أنثويّ مألوف: «لا داعي للعجلة. . فكّرت في أن أحضر لك ولمارك غداءً بسيطاً».
رفعت ميمي وجهها، وإذا بها تقع على سوزان، وسلة غذاءٍ في يدها. فابتسمت لها برقةٍ وأجابت: «شكراً يا سوزان. إني أموت جوعاً».
أشارت سوزان إلى المطبخ قائلةً: «سأضع هذه السلّة على الطّاولة. فكّرت. . فكّرت في أن أشاركك الغداء، إن كنت لا تمانعين».

استغربت ميمي تردّد سوزان، وأومأت: «طبعاً. . تودّ ذلك كثيراً».
ـ سأعدّ المائدة.
لوحت لها ميمي وهي تبتسم بشكرٍ. وبعد مضي ثلاثين دقيقةٍ، أضحى المكتب خالياً. في معظم الأيّام، كان غداؤهما يتألف من أي وجبةٍ سريعة يستطيعان إعدادها، لكن غداء سوزان هذا وليمةٌ لذيذة.
جلست سوزان، وكأنّها حاجزٌ يفصل بينهما، مما سهّل عليهما تبادل أطراف الحديث. لكن سوزان كانت تسكت بين الفينة والفينة، حتّى أحسّت ميمي أن أمراً يشغل بالها. أخيراً، تنحنحت زوجة أخ مارك، وكسا الجد ملامحها، فأوجست ميمي شرّاً.
وضعت سوزان راحتيها على المائدة وتمتمت: «اسمع يا مارك. . كنت أتساءل إن. . . أعرف أنها استراحة الغداء، لكن. . . كنت أشعر بالتّوعك مؤخراً، وتساءلت إن كنت. . .».
وفيما هي تتابع، كان التّورد يزداد على وجنتيها: «هل تمانع إن كشفت عليّ؟».
راقبتهما ميمي من الخلف وهما يخرجان، وقد أثر فيها عطف مارك على زوجة أخيه. تعلم أنّه يهتمّ لخير كلّ مريضٍ وصحته، وأنّ في عنايته صدقاً وحناناً لا مثيل لهما.
وفجأةً انتشلها صوته من أحلامها: «ميمي؟».
قامت عن الطاولة فوراً وأجابت: «نعم؟».
ـ أحتاج للقيام ببعض الفحوصات.
ـ سأحضر حالاً.
بعد مرور ساعةٍ، تقدّم مارك من سوزان والغموض لا يفارق ملامحه. وأخيراً، تمتم بهدوءٍ: «لا أدري كيف أنقل إليك الخبر يا سوزان».
لم تقرأ ميمي على وجهه إلاّ الارتباك، فابتلعت ريقها بشدّة، وسمعته يتابع:

ـ إن هذا نادراً ما يحصل، لا سيّما في حالةٍ كحالتك. فمع أن بطانة رحمك ملتهبةٌ، لكن. . .

هزّ رأسه، وقد افترّ ثغره عن شبه ابتسامة: «يبدو. . . أنك حامل».

لم تعرف ميمي أيّ تشخيصٍ كانت تتوقع، ولكنّه بالتأكيد لم يكن هذا. فغرت فاها، والتفتت نحو سوزان. كانت صهباء الشعر ما زالت مسمرةً في مكانها، وهي تحملق في مارك. من الواضح أنها لم تتوقع ذلك بدورها. وما لبثت أن سألته بهمسةٍ ملؤها الصدمة: «إني. . . ماذا؟».

ابتسم مارك، وضمّ يديها معاً مجيباً: «إن هذا نادراً ما يحدث، ولكنّه يحدث أحياناً!».

ثم وقف، مجبراً إيّاها على الوقوف أيضاً، وعانقها بسعادةٍ: «هنّئيني، سأغدو عمّاً».

امتلأ قلب ميمي بفرحٍ ذاهل، غريبٍ من نوعه، ما إن استوعبته حتّى قفزت عن مقعدها وهي تهتف بهجة.

تبادل سوزان ومارك العناق وهي غارقةٌ في غشيةٍ بعيدةٍ عن الواقع. حين طبع قبلةً على خدّها، طرفت عيناها وكأنها عادت إلى أرض الواقع من جديدٍ. عادت تنظر إليه وقد تزيّن وجهها بحمرةٍ زاهية.

ـ سأنجب. . . طفلاً؟

غمز مارك وأجاب: «انطلاقاً من خبرتي وثقافتي، أجيبك بنعم».

ـ متى؟.

ضحك بخفوتٍ وردّ:

ـ نهاية شباط القادم بحسب تقديري. أرجو ألاّ تكوني قد خططت لشيءٍ آخر!.

نظرت حولها بشرود، فوقع بصرها على ميمي، وإذا بدموع الفرح تنسكب على وجهها. فأجشهت بالبكاء، وهي تمسك بميمي: «أنا. . . لا أصدق ذلك!».

بعد أن احتضنتها بمزيجٍ من القوة والارتجاف، راحت سوزان تردد: «سأنجب طفلاً!».

كانت ابتسامة مارك مضطربةً وفاتنةً في آنٍ، أما الخبر، فرائع رائع! ووجدت ميمي نفسها أسيرة بحرٍ من الإثارة، فقبلَت سوزان، وراحتا تصرخان معاً، وتقفزان بسعادةٍ. في نهاية المطاف، وقعت ميمي بين ذراعي مارك وهي تتابع الصّراخ: «هذا رائع. شكراً! شكراً!».

قهقه مارك قائلاً: «رغم أن الفضل لا يعود لي، ولكن على الرّحب والسعة».

ابتسمت ميمي وأجابت: «بل يعود لك! لقد قمت بالفحوصات، وشخّصت الحالة، ثم زفّيت إلينا الخبر!».

منحته قبلةً وأضافت: «أنت رائع!».

ضاقت عيناه بتأملٍ. ومع أنه حافظ على ابتسامته، إلاّ أن عينيه عكستا تساؤلاً مريباً. لم ينبس ببنت شفة، غير أنها اخترقت ذهنه وكشفت أفكاره. علمت أنه يخاطبها سراً:

ـ استقرّي على رأيٍ! فتارةً أنا رائعٌ، وطوراً منفيٌّ من حياتك! ماذا أمثل بالنسبة لك؟.

شحب وجهها. ففي عينيه سؤالٌ منطقي. ما مكانته في قلبها فعلاً؟ أهو أروع رجلٍ في العالم، أم هو رجعي لا يحق لقلبها أن يحلم به؟.

لكن سعالاً قطع عليهما أفكاراً.

كانت سوزان تنظر إلى الزّوجين المتلاحمين بابتسامةٍ حذرة: «يجدر بي أن أنبيء الوالد العتيد. . . أكملا ما كنتما تفعلانه».

وقبل أن تستوعب ميمي كلام سوزان، رحلت. كانت تدرك أن ذراعيها ما زالتا تطوّقانه، أحسّت ميمي أن ردة الفعل عفوية، لكن حين انقشعت سحابة الفرحة التي سيطرت عليهما، ظلّ يحتضنها رغم إدراكه لما يفعل، ومن يعانق.

بقيا لمدةٍ طويلةٍ يتبادلان نظراتٍ صامتة. أحسّت بدفءٍ بطيءٍ مغرٍ يتسلل إلى جسدها حتّى خطف منها راحة البال. وإذا بقوةٍ مجهولة تتملكها وتمنعها من التحرر.

تناهت إليها همساته، فيما عيناه الرائعتان تتأملانها: «ميمي...».

ارتعشت أوصالها من دون وعيٍ منها وهي تسمع صوته الأجش. فانقطعت أنفاسها، وهي تتوق إليه وتخاف منه في آنٍ، ثم سألته: «نعم؟».

سألها بلطفٍ، وفي عينيه تتلاطم أمواج المشاعر: «أيمكن أن تحطّي رحالك ذات يوم؟».

عندئذٍ، تملكها دوارٌ عظيم وسرت فيها قشعريرةٌ من الخوف. أدركت في أعماق قلبها أنه سيطلب منها الزّواج.

لكنّها لن تجرؤ على الإصغاء إليه. لن تمنح نفسها فرصةً لتضعف، فتقبل بمنزلٍ وأسرةٍ في مكانٍ منعزل. لن تسمح لضعفها أن يجعلها زوجة طبيبٍ! لن تلزم نفسها بواجبات وعوائق!.

دفعته عنها بكلّ ما تملك من قوة، وترنّحت بعيداً. ثم حذرته بصوتٍ منخفضٍ مرتعش: «إيّاك أن تبدأ ذلك مجدّداً يا مارك! إن عقليّتك الرجعية تدفعك إلى الاعتقاد أن أيّ إنسانٍ قد يجد السّعادة في هذه الحياة الراكدة!».

اكفهر وجهه وأجاب: «من النّاس من يعيش حياةً سعيدة، يحقّق فيها كلّ آماله، من غير أن يسافر طيلة حياته».

رأته يدس يديه في جيبي سترته، فلمست في حركته موقفاً دفاعياً وكأنّه يكافح رغبةً في جذبها مجدّداً إلى ذراعيه. وما كان منها إلا أن كتّفت يديها، وهي تدرك شعوره تماماً.

وصرخت في وجهه: «سمّ لي واحداً منهم! أما أنا، فيمكنني، من جهةٍ أخرى، أن أسمي لك المئاتِ، بل الآلاف ممن اشتهروا باكتشافاتهم».

ضاقت عيناه لبرهة، فيما استقام ظهره بخشونةٍ. وقال أخيراً: «إذاً، أنت تسعين وراء الشّهرة. لم أكن أدرك ذلك».

ورغم أنه وجّه إليها الاتّهام بصوتٍ خافت، إلاّ أنه دوّى كالرعد في أذنيها.

لم تخطر لها هذه الفكرة من قبل، لكن لعل شهرة والديها وحاجتها لإثبات نفسها قد أثّرا على قرارتها. فتسلّل حلم الشهرة، شيئاً فشيئاً، إلى حياتها. إنّما، لن يجديها نفعاً إقرارها بالحقيقة. فردّت عليه، وهي تمرّر يداً مرتعشةً في شعرها: «كلّ... كل ما أريده هو احداث فرقٍ».

ترى، كيف يمكن لعطره أن يستمرّ في تعذيبها، وهي على هذه المسافة البعيدة منه؟ ولماذا يستنزف قواها ويخلّف فيها لهفة إلى لمساته، إلى عناقه؟

سألها: «ألا تظنين أنني أحدث فرقاً؟».

ما إن سمعت سؤاله، حتى أسدلت جفنيها وهي تسعى للهروب من الألم في عينيه. أغضبتها أفكاره المنطقية التي لا تنضب. وتساءلت كيف يعقل أن يخلق فيها هذا الشعور بالذنب بمجرّد سؤالٍ هادىء ونظرةٍ حزينة...

ـ أنت تحرّف كلامي.

لمّا عجزت عن إيجاد الكلمات للدفاع عن نفسها، حاولت أن تتأمل وجهه، وتبحث فيه عن عينيه المثيرتين للاضطراب. غير أنه أشاح برأسه، وزمجر قائلاً: «حسناً، كما تريدين».

ثم أشار إلى المكتب بنظرةٍ سريعةٍ حادّة وأردف: «أمامنا عملٌ كثير».

خرج بتشامخ، بعد أن تركها وحيدةً في المطبخ، أسيرة للارتعاش والعبرات. أربعة أيام فقط تفصلها عن موعد سفرها. عليها أن ترحل بعيداً عن جزيرة ميريت، وعن مارك.

ـ آنسة بابتيست!.

أجفلت ميمي. كان مارك غاضباً. لكن أيمكنها أن تلومه؟ ففي غضون أسبوعين، أقدمت على نبذه أكثر من مرّة.

تناهى إليها صراخه: «ميمي، إني أحتاج إليك!».

هرعت إلى الباب، وتمتمت: «ستتغلّب على مشاعرك».

من الصّعب أن يقضي مارك بقية حياته وحيداً. لكن ترى، كيف تتغلّب ميمي هي على مشاعرها؟.

* * *

١٠ ـ هبطا من السّماء

إن كان من أمرٍ تعلّمته ميمي عن مارك ميريت خلال الأسابيع الثلاثة المنصرمة، فهو أنه لا يتقبل الرفض جيّداً. ولعلّ رفضها له يعدّ الأول من نوعه في حياته. لكنّ كلّ واحدٍ منّا يتعرّض للنبذ عاجلاً أم آجلاً، وسيتعلّم مارك كيف يتعامل مع الوضع الجديد.

وأمست الأيّام القليلة المتبقية صعبةً للغاية، إذ راح يرميها بنظراتٍ غاضبة، ويزعق بالأوامر، من غير أن تتلاقى عيونهما إلاّ لماماً. في نهاية المطاف، باتت ميمي أسيرةً للكآبة. من قال إنّها لا تهتمّ للرّجل؟ كلّ ما في الأمر أنه لا يناسبها. لقد رسم الطريق الذي يريد أن يسلكه في حياته، وكذلك فعلت هي. فكيف يجرؤ ويتوقّع أن تقلب خططها رأساً على عقب، وتخنق أحلامها بيدها، من أجله فقط؟

لقد قام هذا الرّجل القويّ الوسيم بعملية فريدة من نوعها، حين أقدم ببساطة على سرقة قلبها.

أملت ميمي أن تساعدها هذه الأمسية في الترويح عن أفكارها. كان قد راق لها أن سوزان وجايك قرّرا إقامة حفلةٍ على شرف المولود الجديد الذي سينضّم إلى شجرة عائلة ميريت. ومع أن مارك ـ الثقيل الظل ـ سيكون حاضراً، لكنّها مصممة على الاستمتاع بوقتها.

تزيّنت ميمي بأبهى حلّة استعداداً للحفلة.. كانت مليئةً بالحيوية

www.Romancia.com

والنّشاط، لكنّها سرعان ما تسمرت في مكانها، لمّا وقع نظرها على مارك في المطبخ. لقد ظنّت أنه غادر الكوخ، إنّما ها هو يدلّل الكلبة وهي تتناول طعامها. بدت ملامحه حادّةً، أمّا ملابسه فغير رسمية ومثيرةٌ في آنٍ. حين تناهت إليه خطواتها، رفع إليها بصره فخطف أنفاسها. فهذا الشعر الأسود اللامع، وتلك العينان الملفتتان مزيجٌ مثير كفيلٌ بأن يذوب قلب أي أنثى.

أخيراً، وقف وقال: «مرحباً. . . هل أنت جاهزة؟».

عبست وقد تملكتها الغيرة. لمَ ما زال في الكوخ حتّى السّاعة، ولمَ يكلّمها كما لو أنّها الجارية التي يواعدها؟ وما لبثت أن قرّرت صرف النّظر عن هذه الأسئلة حالياً، ثم تأملت ثوبها الأصفر قبل أن تتأمله مجدّداً وتجيب: «جاهزةٌ يا دكتور. . . ظننتك غادرت منذ فترة».

رفع حاجبه وأجاب: «نسيت أن أطعم فوفو. لا أدري لمَا بتُّ بهذا الشرود!».

أما هي، فتدري، لكن لا تريد الخوض في هذا السّجال. دسّت يديها في جيبيها، وانطلقت أمامه.

علمت علم اليقين أنه يتبعها، إذ تنشقت عطره، وكادت تشعر بحرارته.

حين بلغا الباب الأمامي، تمتم: «اسمعي يا ميمي. . . .».

توقّفت ورمقته بنظرة سريعة: «أستمع إلى ماذا؟».

افترّ ثغره عن ابتسامةٍ ملتويةٍ ساخرة، وأجاب: «فلنحاول أن ننسجم اللّيلة. فعلى أيّ حال، إنّها حفلة».

واجهته، وعلّقت: «أنا لا أواجه مشكلةً في الانسجام، لكن أنت من يواظب على التذمر وكأنك. . .».

قاطعها وهو يشير إليها بالتقدّم: «حسناً، حسناً. . . فلنتصرّف كصديقين، من أجل سوزان وجايك. فخبر الحمل أثلج صدرهما، ولا أريد لخلافاتنا أن تعكّر صفو الحفلة».

أمالت رأسها، وحركتها تنطوي على تبجحٍ أكثر منه إقرار بالحقيقة:

«أنا في مزاجٍ جيد للغاية».

وهرعت إلى الخارج وهي تصرّ على أسنانها. فمواجهة مارك مشقةٌ عسيرةٌ، لا سيّما وأنها مضطرةٌ للتظاهر باللامبالاة التامّة إزاء سحره.

قبض على يدها وجذبها إليه ثم تابع: «كلاّ، لست كذلك، بل وجهك مكفهرٌ كسماءٍ تنذر بعاصفةٍ».

حدّقت في أنامله ثم سحبت يدها بعنف، لكن من غير جدوى. ولمّا رفض أن يطلقها فعلاً، سدّدت إليه نظرةً غاضبة وصرخت: «دعني!».

تذمر بوجهٍ متجهمٍ: «سنتصرّف اللّيلة كصديقين، وإن قادنا ذلك إلى حتفنا».

هزّت يدها بعنفٍ وهتفت: «من غير الضروري أن تتشابك أيدي الأصدقاء».

ـ لكنّ يدينا ستتشابكان!.

قطّبت وسارعت تسأل: «ومن قال بذلك؟».

ـ أنا!.

رفعت رأسها إلى الأعلى وقد أذهلها الغضب في عينيه، ثم تساءلت: «أنت؟ ومن تكون أنت لتملي عليّ أي نوعٍ من الأصدقاء نحن؟ ألا يحقّ لي أن أشارك في التّصويت؟».

ـ كلاّ.

عندئذٍ، تسمرّت في مكانها، فأجبرته على الالتفات لمواجهتها. ثم قالت: «بل سأصوّت! وبما أننا نعمل معاً من غير أن نصرّح بمشاعرنا، أصوّت أن نتظاهر بالصداقة».

تمتم بهدوء: «لا يحق لك أن تصوّتي يا ميمي».

لم يعجبها هذا الهدوء الذي اعتراه فجأةً، فتفحصّت وجهه بانفعالٍ، ثمّ هتفت: «ولمَ لا؟».

فالتفت بعيداً وهو يجرّها في أعقابه ويقول: «لأنني لا أرغب في منحك

صوتاً!».

ارتفع صوتها بالسّؤال: «ماذا تعني بأنك لا ترغب في ذلك؟».

ـ أعني ما قلته تماماً.

مشت وراءه باضطرابٍ وهي تكاد تتعثّر، وقالت: «هذا ليس بعدلٍ».

ـ لقد أخبرتني بنفسك أننا معشر الأطباء آلهةً، يحق لها التصرّف وفق هواها.

وفجأةً، تعثرت قدمها ووقعت فعلاً.

اصطدمت قدمها بصخرةٍ، قبل أن تترنّح وتقع أرضاً. حاولت أن تستقيم وتلقي نظرةً على رجلها. ولم تلحظ، إلاّ بعد مرور ثوانٍ، أن مارك أفلتها. أحنت رأسها تتفحص ساقها، وقد أجفلها الألم. كانت ساقها جريحة والدّم ينزّف منها بغزارة.

لم تعرف أن مارك بجانبها إلا حين سمعت شتيمةً خافتة: «أنا آسفٌ، إني أحمق».

اختلست النّظر إليه، وتفاجأت حين أدركت أنها غير غاضبةٍ. كانت على وشك أن تفتح فمها لتوافقه القول، حين علمت أن ذلك لن يكون إلاّ سخافةً لا طائل منها. ثم حاولت أن تقف، لكنّ الألم حال دون ذلك.

ـ سأساعدك.

حين طوقها مارك بذراعه، ابتعدت عنه تجنباً للمساته، وقالت: «لا شكراً، فلنقم بما علينا فعله».

ثم توجهت نحو القصر، وهي تشعر بالارهاق والضعف. شعر مارك بالاشمئزاز من غبائه. حين وصلا إلى الحفلة، كان يلعن نفسه للمرّة المائة. هل أصيب بالجنون؟ كان يحبّها، ولكنّها أوضحت له تماماً أنها لا تبادله المشاعر، وأهدافهما لن تتلاقى. نقطة على السّطر. نهاية النّقاش. وكيف تصرّف حضرة الطّبيب العظيم؟ تمتم:

ـ كأحمقٍ يعوزه التّفكير السّليم، هكذا تصرّفت!

ـ هل أصبحنا نكلّم أنفسنا الآن؟.

أجفل مارك، ونظر إلى الوراء، فأبصر أخاه.

ـ أنت تسير كالهررة.

ابتسم جايك وهزّ كتفيه لامبالاة، ثم قال: «ماذا تفعل وحدك هنا؟ إن الحفلة، في الحديقة».

عرف مارك أن هروبه إلى المكتب ضرب من الجبن، فكتم شتيمةً أخرى. هل بات الآن أحمق وجباناً في الوقت نفسه؟ قال: «إني آسفٌ يا جايك.. إنها حفلةٌ رائعة، ولكنني... متعبٌ وحسب».

ـ إذاً، لم تدعو نفسك أحمق؟

اختلس مارك النّظر إلى شقيقه... ثم هزّ رأسه ردّاً على سؤال جايك، وتمتم: «هلاّ نسيت الأمر؟».

سرعان ما ابتعد عن نظرات أخيه الثاقبة، وتهالك على الأريكة الجلدية بجانب الموقد. وما إن تراخى عليها، حتى أغمض عينيه، وأطلق تنهيدةً طويلةً، قال بعدها: «اسمع يا جايك، عد إلى الحفلة، سأوافيك حالاً.. كلّ ما في الأمر أنني...».

تنهد بإحباطٍ مرةً أخرى، وأضاف: «... أحتاج...».

دوى صوتٌ في عقله متابعاً: «ميمي! أنت تحتاج ميمي!».

أصغى مارك إلى خطوات أخيه وهو يتقدم نحوه ليجلس بجواره.

ـ أفترض أن قصة الحب العنيف آلت إلى الفشل، أليس كذلك؟

أجفل مارك وقد شعر بصداعٍ أليم يتملّكه، ثم تمتم: «أما زلت هنا؟».

تابع جايك: «لكن ميمي تبدو سعيدةً مرتاحة».

استدار مارك وهو يعبس في وجه أخيه: «نعم، هذا ما لاحظته أيضاً».

دنا منه جايك، وسأله: «هل بُحتَ لها بمشاعرك؟».

لم يستطع مارك أن يكتم ضحكةً ساخرة في صدره.

ـ لديها فكرةٌ عن الموضوع.

أرجع مارك رأسه إلى الوراء، وحدّق في السّقف.

أحسّ مارك بيد شقيقه تشدّ على كتفه، وكأنّه يبدي تفهماً صامتاً.

ـ حسناً، أنت لا تريد الخوض في الموضوع. . . هيّا، انضمّ إلى الحفلة يا رجل! فإطالة التّفكير والكآبة تزيدان الطين بلّة. أكلّمك بصفتي خبير. فقد كنت ملك العبوس سنوات عديدة، قبل أن تظهر سوزان في حياتي. . . لكن تأمّل حالي اليوم!

التفت مارك إلى أخيه الأكبر. وبعد دقيقةٍ، لوى فمه بابتسامةٍ ساخرة، ومازحه: «إنك تشعرني بالاشمئزاز يا جوكو. ماذا فعلتَ لتستحقّ هذا الشعور اللّعين بالسّعادة؟».

ضحك جايك ووقف: «لقد حالفني الحظّ اللّعين!».

أراد أن يفيض بالكلام، غير أنه سكت فجأةً وعلى ملامحه الجدّ. وتناهى الصوت إلى مسامع مارك كذلك.

ـ بدا لي أنه ذكر. . .

لكن مارك لم يتابع، بل حدّق في المذياع وهو غير مصدّقٍ.

ـ . . . وهي الابنة الوحيدة للسناتور لورانس نوردستورم من كاليفورنيا. وتبلغ أوليفيا نوردستورم الثالثة والعشرين من العمر، وهي متخرجة حديثاً من جامعة يال. وقد تعرّضت اليوم لحادثٍ كاد يودي بحياتها، خلال ممارستها لرياضة القفز في الهواء، خارج لوس أنجلوس. عند خروج السناتور من مبنى الكونغرس في واشنطن العاصمة، ألقى كلمةً أمام حشدٍ من الصحفيّين، علّق فيها على هذه التجربة.

وسمع صوت السناتور، خافتاً وقوراً: «إني وزوجتي ندين لزاكري ميريت بفضلٍ كبير. فقد جازف السيد ميريت بحياته لينقذ أوليفيا حين عجزت عن فتح مظلتها. لقد شاهدت الشريط الذي صوّره أحد الهواة، واقشعرّ بدني حين رأيت هذا الشاب، بأم عيني، يقفز في الهواء، معرّضاً نفسه لخطرٍ شديد، ليمسك بابنتي فيما هي تنهار. . .».

صمت الصّوت الجليل تأثراً، قبل أن يتابع: «حمداً لله، وبفضل شجاعة السّيد ميريت ومهارته، هبط الاثنان على الأرض سالمين. سنحرص على شكر الشّاب شخصياً، في. . .».

ـ ها أنتما إذاً. . .

همس جايك، وهو يوقفها بيده: «انتظري لحظة يا حبيبتي. . . إنهم يبثّون خبراً عن زاك».

اختلس مارك النّظر إلى الباب. كانت سوزان تقف عنده، والابتسامة قد تلاشت عن وجهها. وعلى بعدِ خطوةٍ أو خطوتين منها، وقفت ميمي بدورها، والحيرة على ملامحها.

حين تابع مذيع الأخبار التعليق على عملية الإنقاذ، تكلّم مارك: «قد تبث محطة «السي إن إن» المشاهد».

وما هي إلا ثوانٍ حتى أدار التّلفاز، وراح يقلّب في محطّات الأخبار. بعدئذٍ، ظهر على الشاشة رجلٌ قويٌّ أنيق يناهز الخمسين. أما التّعليق في أسفل الشّاشة، فكان: السيناتور نوردستورم وزوجته من كاليفورنيا.

كانت زوجته امرأةً جذابةً كهلةً، راحت تبتسم للكاميرات تكفكف دموعها بمنديلٍ مخرّم. حين وصل السيناتور في كلامه إلى شريط الڤيديو، ظهرت على الشّاشة مشاهد الإنقاذ التي التقطها أحد الهواة.

كشفت الصّورة عن رجلٍ، هو زاكري ميريت، وقد ابتعد عن المجموعة.

فيما الرّجل يهبط إلى الأسفل كسهم ناريّ، سمع مارك شهقةً، وأدرك أن سوزان قد اقتربت منه. ثم همست بخوفٍ: «أهذا أخوك؟».

أومأ مارك: «يبدو ذلك».

انضمّ جايك إليهم، ثم أحاط سوزان بذراعه، وهو يوجّه كلامه لمارك: «أتذكر حين كان زاك في الحادية عشرة من عمره؟ لقد قفز عن سطح بيت الدّكتور فليت، أليس كذلك؟».

أومأ مارك، وقد رسمت الذكرى طيف ابتسامةٍ على شفتيه: «نعم، وقد أحسن اختيار المكان، بما أنّه كسر ساقه».

قهقه جايك، وأضاف: «من كان يظن أنه يتدرب ليكون بطلاً؟».

عرض الشريط هبوط زاك الصّاروخي نحو المرأة التي تهوي. وبحركةٍ سريعةٍ كالبرق، أمسك بها وقبض عليها بإحكام، قبل أن يفتح حبل المظلة. بعد ثوانٍ حُبست فيها الأنفاس، هبطا محدثين موجةً عظيمة من التراب.

كان مذيع الأخبار يعلّق على المشهد، حين ظهرت على الشاشة الصورة نفسها إنما من زاوية أخرى. بدا زاك تحت الحبال، وهو يحاول أن يتخلّص من قماش المظلة الذي أعاق تحرّكه.

اقتربت الكاميرا بسرعةٍ من وجهه، وهو منهمكٌ في استخراج عدّته. وبدا أنه لم يصب بأذىً.

تعجّب مارك كيف تغيّرت ملامح أخيه منذ رآه للمرة الأخيرة. لقد أصبح أطول قامةً وأمتن بنيةً. مهما كان الأمر الذي شغل وقت زاك خلال كلّ تلك السنوات، بدا واضحاً أنه حافظ على رشاقته. لكنّه ما زال ذلك الفتى الذي يتذكّره مارك، بابتسامته الساحرة، وشعره الأسود الكثيف. وزاك، الذي يكبر مارك بعام واحد، يناهز الآن السادسة والثلاثين من عمره... يا إلهي، كيف تمرّ السّنون وتمضي بسرعة!؟

بيّنت الكاميرا زاك وهو يساعد أوليڤيا نوردستروم على الوقوف رغم أن ساقها قد أصيبت. وما إن وقفت السّمراء على قدميها، حتى طوّقت زاك بذراعيها، وعانقته بشدّة.

قالت سوزان: «للسيناتور ابنةٌ جميلةٌ جداً».

ضحك مارك: «ومن غير زاك لينقذ النّساء الجميلات؟».

أضافت سوزان: «إنّهما يشكّلان ثنائياً لطيفاً».

أجاب مارك:

ـ نعم، ثنائي لطيف مجنون.

عندها، قالت ميمي: «لا أظنّ أنّهما مجنونان، بل يتجرّعان كأس الحياة حتّى الثمالة».

تمتم مارك: «ولكنّ أحدهما كاد يتجرّع الكأس سمّاً اليوم».

ردّت ميمي: «ولكنّها لم تمت، وهذا هو المهمّ».

ارتفع صوت سوزان: «أظن أن زاكري يشبهك يا مارك».

تنفس مارك الصّعداء حين تغيّر الموضوع. كان يعرف فلسفة ميمي في الحياة جيّداً، وأقلّ ما يتمنّاه حالياً هو إثارة الموضوع مجدّداً. فما الفائدة؟.

قال جايك ممازحاً: «بما أنك أثرت الموضوع، أظن أن زاك ومارك يشبهان بعضهما كثيراً، فكلاهما يحب الحياة العائلية البسيطة».

دفعت سوزان زوجها بمرفقها وأجابت: «يا لآرائك الشخصية الساحرة... في الواقع، عنيت أن لمارك ابتسامة زاك. ولكن زاك يملك أيضاً غمّازة، وهذا ما لا تملكانه أنتما الاثنان».

اقتربت ميمي من مارك وقالت: «لا أصدّق أن هذا أخوك. لمَ لم تذكره قط؟».

أطفأ مارك التلفزيون واستدار نحو ميمي وهو يتمنّى لو أنه لم يفعل. فيكفي ما يثيره عطرها في نفسه من اضطراب. حاول جاهداً ألا يقع أسير عينيها الرّماديتين، اللّتين ازدادتا اتّساعاً مع دهشتها، وقال: «زاكري أخونا الأوسط. لم يتّفق والملك جورج يوماً. لذا غادر المنزل قبل وقتٍ طويل. يقول جايك إنه حضر مأتم أمي، وكأنه ظهر من العدم. لكنّه اختفى سريعاً حتّى إنني لم ألحظه، كان ذلك منذ ثماني سنواتٍ».

حاول أن ينفض عن قلبه الحزن. ومع أن رجال ميريت لا يفصحون عن مشاعرهم، إلاّ أنهم جميعاً يفتقدون هذا المتشرد.

ـ باستثناء الاتصال في الأعياد، فإننا إجمالاً لا نتلقّى منه خبراً.

ـ باستثناء إنقاذه البنات الفاتنات من موتٍ محتّم، أليس كذلك؟

أشعلت ابتسامة ميمي الوقحة ناراً حارقة في داخله، هدّدت أن تقضي

عليه إن لم يحتضنها في الحال.

أضافت: «فلنواجه الأمر، إن البطاقات البريدية ليست مثيرة بقدر عمليات الإنقاذ هذه».

قهقهت سوزان، وأمسكت بيد زوجها قائلةً: «والآن يا عزيزي، فلنذهب إلى الحديقة حيث ينتظرنا قالب حلوى يحرسه جورج وكايل بحياتهما. إني أرفض أن ألتهم نصفه وحدي. يكفي أن وزني سيزداد قريباً!».

ـ حسناً يا حبيبتي. تعرفين أني أكره أن أخيّب آمالك، ولكنّي أظن أن كايل وجورج لا يقومان بالحراسة وحسب.

راقبهما مارك وهما يغادران الغرفة فيما مزاجه الكئيب يتحوّل إلى غيرةٍ سوداء، فمجرّد الاستماع إلى أخيه وزوجته، يشتكيان من تدليل جورج لطفلهما، أو أطفالهما في المستقبل، سهمٌ ينغرز في صميم قلبه.

تمتمت ميمي: «هذا مثيرٌ للاهتمام. لقد تبيّن أخيراً أنّ في عائلتك جيناتِ شهوة السّفر!».

أدار مارك وجهه نحوها. لم تكن تبتسم فعلاً، بل ترمقه بنظرةٍ راضيةٍ. ابتعد عنها، ليخلّص نفسه من عذاب تنشق شذاها. ووقف عند نافذةٍ مجاورةٍ متظاهراً بتأمل المنظر الخارجي، رغم أنه لم يكن يرى إلا الفراغ، ثم اختلس النّظر إليها. وقال: «قد تلتقين به ذات يوم في مجاهل أفريقيا أو في القطب الجنوبي، إن فعلتِ، أخبريه أن عائلته ترغب في رؤيته ثانيةً».

بقيت تراقبه، إنّما بتعبيرٍ اختفت فيه الابتسامة المتكلفة، ثم قالت: «حسناً».

نظرت ناحية الباب، وكأنّها لا تطيق صبراً حتى تخرج، فدفعته كآبته المجنونة إلى القيام بإيماءةٍ ساخرة، ثم ضحك هاتفاً: «اذهبي، فأنت لست سجينتي».

استدارت نحوه مجدّداً، وردّت: «بل أنت تسجنني يا مارك، حتى صباح الاثنين».

حين تذكّر أنّها تتحرّق شوقاً للرّحيل عن جزيرة ميريت... وعن مصدر الإزعاج فيها، خانته شجاعته. فأدار لها ظهره، وأسند يديه إلى عتبة النافذة.

ـ اللّعنة يا ميمي. لقد تمّ اصلاح زورقك، ويمكن لوكيل سفريات جايك أن يرسل لك بالفاكس بطاقة سفر في غضون دقائق. إن كنت متلهفةً للرحيل، فارحلي!.

أحنى مارك رأسه وهو يلعن نفسه على تفوهه بهذه الكلمات، فهو لا يريدها أن ترحل! لا بل يفضّل أن يقطع يده على أن....

تمتمت بهدوء: «حسناً... رائع».

شيئاً فشيئاً، تلاشى وقع خطاها، حتى انقطع نهائياً.

تأمّل مارك السماء البهيّة، ونسي نفسه في الجمال الناريّ لشمس المغيب.

سرت في بدنه قشعريرةٌ مخدّرة. ودوّى في أذنيه صوتٌ له من ريح الشتاء هديرها. تلك الرّيح التي تتغلغل في شعرك، وتظلّ تتردد في رأسك حتى بعد أن تحطّ العاصفة رحالها، وتموت.

* * *

١١ ـ كيف ينساها؟

خشيت ميمي أن تكون قد أفسدت الحفلة بنفسها، فمارك لم يخرج ليتناول الحلوى، مما هدّد بالقضاء على سعادة جايك وسوزان. تباً لها! أكان عليها أن تتسم بهذه الأنانية وتقبل دعوتهما، بالرغم من مشاكلها مع مارك؟ إن سوزان وجايك عائلته هو! أما هي، فكان عليها ملازمة الكوخ، بعيداً عن آل ميربت، وحفلتهما الخاصة.

في غضون ساعة، كان جايك قد دبّر لها تذكرةً إلى جاوا، كما وعدها مارك تماماً. وبات رحيلها في الغد أمراً لا بدّ منه.

لكن ما زال عليها أن تحزم أمتعتها.

كان الظلام يخيّم على الكوخ، فافترضت أن مارك قد خلد إلى النوم. حانت منها التفاتة إلى السّرير، وإذا بفوفو تنتظرها في حركةٍ أثارت مشاعر ميمي. على الأقل، في هذا الكوخ من يحبّها فعلاً.

ولمّا كانت اللّيلة منعشةً صافيةً، قرّرت ميمي أن تشرّع نافذتها على مصراعيها، عسى نسيم المحيط يلفحها، ورائحته تتغلغل فيها. وما إن فعلت، حتى لمحت شعلةً بين الأشجار، وتنشقت رائحة الحطب المحترق في الأجواء. ظلّت لبرهةٍ تحملق علّها تكتشف ما الأمر. . . وأخيراً، بدا لها وكأن أحداً أضرم ناراً في العراء. . .

ترى، من ذاك المرابط فوق الرّمال؟ لا يعقل أن يكون جايك وسوزان!

لقد رأتهما يصعدان إلى غرفتهما مع كايل، كما لن يقدم جورج على تصرّفٍ بوهيميٍّ كهذا.

تقدّمت ميمي نحو الباب الأمامي واندفعت نحو الشرفة والفضول يتملكها. ترى هل يخيّم عمّال المناجم على الشواطىء؟ لا يمكن ذلك! وبالطبع، لا يعقل أن يكون الطّبيب الموَسْوَس وراء ذلك، وإلاّ نظّف الساحل بأكمله أولاً! وبقدر ما كانت تستبعد أن يختبر مارك لذة النوم على الرّمال بجانب النيران، بدأت تكتشف الحقيقة التي لا تصدّق. كان الرّجل يجلس وحيداً، لا رفيق له إلاّ ضوء النّار والبحر. وهذا الرّجل هو فعلاً الدكتور مارك.

كانت النيران الملتهبة قد لوّحت صدره بتوهج مثير، فيما اكتست كتفاه العريضتان لوناً برونزياً غريباً. أما خصلات شعره، فتتطاير مع النّسيم، وتومض بلونٍ أحمرَ قانٍ. تمهلت في سيرها، وقلبها يخفق بشدّةٍ بين أضلعها، ففي هذا المنظر من الإثارة ما لا يصدّق.

حين تململ أخيراً، أحسّت أنه شعر بوجودها. فغرت فاها ولكنّها ما وجدت للكلام سبيلاً. بل كل ما استطاعته هو التّوجه نحوه بصمتٍ، تسيّرها إرادةٌ أقوى منها.

استدار إليها، وفي عضلاته المفتولة تشنجٌ واضح. وما لبث أن ناداها: «هل من حالةٍ طارئة؟».

ـ لا.

سارت فوق الرّمل بخطىً خافتة، وجلست بقربه. لم تكن تعرف لمّا انضمّت إليه، لكنّ دفعها شعورٍ غريب صارعها حتى غلبها. جلست القرفصاء ثم حانت منها التفاتةٌ إلى وجهه المهيب. كانت نظراته شاردة في البعيد. أيحقّ لها أن تلومه لأنه أغفل عن النّظر إليها؟.

ـ ماذا تفعل هنا؟

رمقها بنظرةٍ قاتمة وأجاب: «أهتمّ بشؤوني الخاصة. . . كثيرٌ من الناس

يقومون بذلك. يجدر بك...».

تابعت بابتسامةٍ: «أن أحاول ذلك في بعض الأحيان... أعرف ذلك».

ثمّ أراحت ذقنها فوق ركبتيها، وأردفت: «وأفترض أن رجال المراقبة لا يواجهون مشاكل معك، أليس كذلك يا دكتور؟».

في الحقيقة، أرادته أن يبتسم. ربّاه! كم اشتاقت لابتسامته.. منذ أيّام وهي تتوق إليها. لكن مزاحها لم يَلقَ، لسوء الحظ أذناً صاغية. كلّ ما فعله هو رميها بنظرةٍ ضيقة، ثم الإشاحة بوجهه.

وما لبث أن سأل: «لمَ ما زلت هنا؟ اعتقدت أنك تتلهفين للرّحيل».

أصابتها كلماته القاسية بالتّوتر والغضب، فسارعت تقول: «لن تنفجر الجزيرة! كان عليّ أن أغسل بعض ملابسي. ومن ثمّ يفترض أن أحزم أمتعتي. هل سبق وفعلت ذلك؟».

حاولت ألا تفكّر في الألم المتفاقم في أحشائها، وكأنّه حدادٌ على شعورٍ مات واندثر.

ـ كما أن الطّائرة تقلع غداً ظهراً. لكن لا تقلق يا دكتور، إنّي راحلةٌ مع أولى ساعات الصّباح.

مرّر أصابعه في شعره بذهولٍ، ثم أنزل يده واستند إليها. كان لتقلّص عضلاته أثرٌ فيه عذابٌ لا يحتمل. ورغم أن ميمي تعلم أنه لا يتعمد عرض رجولته عليها، إلا أن وقعها عليها أشبه بعناقٍ، وأحسّت بنبضها يتسارع حتى يكاد ينفجر.

كانت تتوقّع منه كلّ شيء، إلاّ أن ينحني نحوها بتساؤلٍ وجدّ: «من هو صديقك المفضّل يا ميمي؟».

أذهلها سؤاله هذا، لا بل أربكها على نحوٍ غير متوقّع، فهزّت رأسها حائرةً، وتلعثمت: «في الواقع... أصدقائي كثر».

تفحص وجهها وبادر يقول: «سمّ واحداً».

رفعت رأسها بتحدٍّ وأجابت: «لا تكن سخيفاً. لي أصدقاءٌ منتشرون في

أنحاء العالم. بل آلافٌ من الأصدقاء».

هزّ كتفيه استهجاناً، والتفت بعيداً: «إذاً، لا داعي لاتخاذ هذا الموقف الدّفاعي».

حدّقت فيه وقالت: «لست دف....».

قاطعها، وهو يوجّه لها نظرةً تساؤليةً أخرى: «كيف التقى والداك؟».

استغربت سلسلة أسئلته هذه. أهي وسيلة لتمضية الوقت من دون تبادل أحاديث حميمة؟ أم أنه يسعى لمضايقتها حتى تتركه وحيداً؟.

استندت إلى يديها، وهي توحي له أنها لا تنوي المغادرة بتاتاً. لقد سأل السؤال، وسيلقى حتماً الجواب!

ـ كانت أمي تقضي إجازتها في مصر مع بقية المعلّمين، حين...

بنظرة سريعة: «أقلتِ معلّمين؟ ألم تكن مصورةً في البراري؟».

نظرت إليه بارتيابٍ وردّت: «كلاّ، لماذا؟».

هزّ رأسه وتابع: «مجرّد فضولٍ».

عادت تحملق فيه عابسةً، فيما هو يحدّق في أمواج المحيط. أطبق أسنانه بإحكام، ثم أرخى عضلاته. إذاً، لم يكن غير مكترثٍ كما أرادها أن تظنّ. وأخيراً، سألها: «هل كانت تحبّ التّعليم؟».

ـ بل تعشقه.

همهم قليلاً، ثم أومأ برأسه، ووجّه إليها نظرةً متأملةً لم تعجبها كثيراً. وشيئاً فشيئاً، لمعت في ذهنها فكرة.

ـ إن كنت تحاول أن تبرهن أن أمّي هجرت عملاً عزيزاً على قلبها من أجل أبي، إن كنت توحي بأنّها قتلت أحلامها لتعيش معه، فأنت مخطىءٌ تماماً. لقد أنجبتني وعلّمتني! لم أكن تلميذةً حمقاء، بل أنا أفضل ممّن تلقّوا تعليماً منهجياً! وهذا يثبت أن أمّي لم تتخلّ عن أيّ حلم!

بعد أن فرغت من حجّتها، أحسّت بارتياح شديد، ثم هَتفت بنبرةٍ جافة وهي تستمتع بانتقامها: «ماذا بوسعك أن تقول الآن؟».

أحنى ظهره، وراح ينفض الرّمل بيديه الاثنتين، ثم وقف وهو يقول: «فهمت».

بقي مدّة طويلة، يحدّق في المحيط القاتم، حيث تتلاطم الأمواج محدثةً هديراً عظيماً. وأخيراً تمتم برزانة: «لقد قدّمت لي يد المساعدة خلال هذه الأسابيع، وأنا أقدّر ذلك. أتمنّى أن تعثري يوماً على ما تبحثين عنه».

مدّ يديه، مضاعفاً من مفاجأتها. فأمسكتها بحركةٍ غريزيّة، وقد ظنّت أنه يساعدها على الوقوف. لكنّه اكتفى بالضغط على أصابعها، وقال: «تصبحين على خير يا ميمي».

ثم ترك يدها، واختفى.

كان مارك يتناول الغداء الّذي أرسلته سوزان بشرودٍ تام. ففي هذه الأيام، بات الطّعام بلا طعمٍ ولا نكهة. أما حياته الخاصّة ففارغةٌ تافهة أيضاً. لكن، لحسن الحظّ، كان المرضى يتدفقون على عيادته، فيحولون دون أفكاره تلك.

بذل في الشّهرين اللّذين تليا سفر ميمي، جهداً ملحوظاً لمواعدة غيرها من النساء. وحين حلّ شهر تشرين الأوّل واجه الحقيقة المرّة. إنه يحبّ ميمي بابتيست، ولا فائدة من اضاعة وقته، في مواعدة غيرها، حتى يطردها من قلبه، وينتزع جذور حبّها العميق. صحيحٌ أن هذا القرار يفتقر إلى المنطق، فكيف لرجلٍ أن يطرد امرأةً من قلبه، إن لم يسعَ لاستبدالها بأخرى؟ لكن قلبه، لسببٍ أو لآخر، يرفض أن ينخرط الآن في بحثٍ عن أي ضالةٍ منشودة. من هنا، قرّر أن يمنح نفسه المزيد من الوقت، علّه ينسى.

قضم قضمةً أخرى من شطيرته، ثم أعادها إلى الطبق. لم يكن يشعر بالجوع. ليته جائعٌ فعلاً. . . ليته يشعر بالجوع أو بالظمأ أو بالإثارة أو بالاهتمام.

ـ مرحباً يا أخي.

التفت مارك، وإذا به يرى جايك عند باب المطبخ. فما كان منه إلاّ أن رفع حاجبياً، وهو عاجزٌ حتى عن الابتسام. سأله: «ما الأمر؟».

تقدّم جايك نحو الطّاولة، وسحب كرسياً. ثم نظر إلى أخيه، وهو يرخي مرفقيه على المائدة.

ـ كنت وسوزان نفكّر في الذهاب إلى بورتلاند، لنتناول العشاء، ونشاهد فيلماً. ما رأيك لو تتّصل برفيقةٍ، فنذهب نحن الأربعة؟.

تنهد جايك كَمَنْ عيل صبره وقال: «اسمع يا أخي، أتمانع إن وضعت النّقاط على الحروف؟».

كتّف مارك ذراعيه. نعم، إنه يمانع، فالحديث عن ميمي وعن تعلّقه بالأطلال لن يفيداه. إن عقله يدرك ذلك تماماً، لكنّ تلك ليست حال قلبه.

تمتم أخيراً: «ليتك تنسى الموضوع يا جايك، فأنا على خير ما يرام».

استقام أخوه في جلسته، وسارع يجيب: «إنّما، هل أنت سعيدٌ؟».

هزّ مارك كتفيه لامبالاةً، وردّ: «أنا أهذي من السعادة!».

زمّ جايك شفتيه بتعبيرٍ يخالطه شكٌّ عظيم، وقال: «لا أريد أن أنعتك بالكذب، ولكنّك لا تبدو لي رجلاً سعيداً».

سارع مارك يجيب بابتسامةٍ عريضة: «إنّي أحاول ألاّ أظهر ذلك، فأنت تعلم ما يقال عن الرّجال الّذين ينعمون بسعادةٍ فائقة».

قطّب جايك، وتمتم: «نعم. . . إنها لعنةٌ، كأن يكون المرء باهر الجمال، أو فاحش الثراء، أو سليم العقل».

اكتفى مارك بالابتسام لأخيه، وهو يدرك أن أيّ كلمةٍ يتفوه بها لن تكون في صالحه. أمّا جايك، فهزّ رأسه وقال بتعاطفٍ: «إن تعليق الآمال على امرأةٍ مضيعةٌ للوقت. فإمّا أن تبحث عنها أو أن تطردها من رأسك!».

أقلع مارك عن ابتسامته البلهاء، وتمتم: «كيف أبحث عنها وأنا لا أعلم لها مكاناً؟».

حدّق جايك في أخيه لمدّةٍ طويلة، بنظرةٍ ملؤها العطف. فمن يعرف

الأحزان أكثر من الأخ الأكبر في عائلة ميريت؟ إنما، من حسن حظّه أنه وجد ضالته أخيراً، وعرف من جديد الحبَّ المتألق والسعادة المشرقة، مع سوزان. تبادلت عيونهما حديثاً صامتاً، أحنى بعده جايك رأسه، ثم هزّ كتفيه لامبالاةً واستسلاماً.

***

١٢ ـ التاريخ يعيد نفسه

صار بوسع مارك أن يبحر إلى جزيرة ميريت، حتّى وإن كان الضّباب مخيّماً، حتى وإن كان بهذا الشّرود. لقد ازدادت أفكاره تيهاً وسبحت نحو عالم خياليّ بعيدٍ عن أرض الواقع. أدار الدفة باتّجاه البيت، عائداً من الجزر الصّخرية المتناثرة، حيث عاين بعض المرضى.

لم يعد مسحوراً بمعالم الطبيعة. فهذا الضباب المخيّم فوق المياه، وهواء البحر المثقل بألف رائحةٍ ورائحة، وسكون اللّيل هذا ما عاد يحتلّ في قلبه المكانة المميّزة نفسها. أمّا مشاعره فلا يخالطها أي فرح، وفؤاده لا يحفل إلا بصحة المرضى وحسب. ترى أهذه حال المرء حين تموت المشاعر في داخله، ويفقد الجمال في نظره كلّ معنى؟.

في الآونة الأخيرة، بات مخلوقاً تسيّره أهواؤه.

تطلّع إلى الأمام بعينين لا تبصران، وراح يجاهد لينتزع من قلبه ألماً زرعته امرأةٌ لن يراها مجدّداً. لعن هذا الثقل الأبدي في صدره، وتلك الوحدة التي لا تفارقه ليلاً نهاراً. كم يكره العيش في مملكةٍ من الخيال يلاحق فيها شبحاً!

تباً يا ميريت، لا تتصرّف كأرملٍ بكّاء! فهي لم تكن لك يوماً!

وفجأةً، أحسّ بشيء يرتطم بمركبه ارتطاماً مدوياً، انتشله من أفكاره الشّاردة. وضع يده فوق عينيه وحدّق في الضّباب. تباً له! لقد كان غارقاً في

أحزانه، حتّى أنه لم ينتبه للرادار. أحسّ بمزيج من القلق والعذاب، ثم أشعل أضواء المركب وهو يشعر أن هذه الحادثة مألوفة.

ما إن انتقل إلى الجانب المتضرّر، حتّى حملق بالضباب الذي اخترقته أنوار المركب. لم يكن من الصّعب عليه أن يميّز مقدمة زورقٍ صغير. لاحظ أن المجاذيف تحطمت على جانب مركبه، ناهيك عمّا حدث للألواح البلاستيكية وطبقة الطّلاء اللّماع التي تلفت.

كتم مارك شتيمةً. هل مركبه هدفٌ للمراكب الأخرى؟ ما حكايته مع الضّباب والزوارق الصّغيرة؟.

لمح مارك من زاوية عينيه شخصاً ينهض ببطء، وهو يحاول أن يثبّت ذراعه إلى الصّاري، عساه يستعيد توازنه. ازداد العبوس على جبينه. كيف لهذا الشّخص الذي تسبب بتلك الضربة العنيفة أن يشبه ميمي إلى هذا الحدّ؟! حتّى سروالها الطويل وسترتها يشبهان ملابس ميمي.

أخذ مارك يفرك عينيه وهو غير مصدّقٍ. صحيحٌ أنه لم ينل قسطاً وافراً من النّوم في الأونة الأخيرة، لكنّه لا يعتقد أنه بلغ هذه الدّرجة من الهلوسة.

أطلقت المرأة عويلاً، وقبضت بيدها على شعرها الأشقر المسترسل.

ثم حوّلت نظرها إلى مارك، وأشارت بإصبعها إلى مقدّمة الزورق المتضررة.

ـ انظر إلى ما فعلته بزورقي!

رمقها مارك وهو لا يدري أهو واقع أم خيال. إنّ صوتها يشبه صوت ميمي أيضاً!.

بعد مرور دقيقةٍ، وضعت يديها على خصرها ونادته: «أليس لديك ما تقوله؟ كأن تلوم طيشك لأنّه جعلك تجنح بمركبك لتصطدم بمقدّمة زورقي؟».

استند إلى الحافة، وهو يحدّق فيها ثم همس بشكٍّ: «ميمي؟».

تقدّمت منه بحذرٍ، وتابعت: «ومن ثمّ أقول: لكنّه ليس حتّى بمركبي».

ـ يا إلهي!.

ـ كلاّ، لا يفترض بك أن تقول هذا الآن، بل عليك أن تسأل بنبرةٍ ساخرة: «وهل أفترض أنك كنت تمرّين بالجوار حين سمعت الارتطام، وقرّرت تقصّي الأمر؟».

دنت بسرعة من المجاذيف المحطّمة. وحين أصبحت قريبةً منه، أراحت يديها بين يديه، ورفعت إليه ناظريها. كانت العينان الرّماديتان الرّقيقتان يقظتين. أمّا الشّعر، فناعمٌ مسترسلٌ ببساطةٍ فوق الكتفين، تداعبه النّسائم المنعشة، وقد انبعث عطرها اللّطيف، فأحيى ذكرياتٍ حلوةً مرّة في الوقت نفسه.

همس: «ماذا تفعلين؟».

ابتسمت ابتسامةً ضعيفة، وهزّت رأسها: «كلاّ، من المفترض أن تخبرني أن رأسي قد أصيب، وأنك ستفحصه، ثم تدعوني على متن مركبك».

تملكته الحيرة، لكنّ الغمامة بدأت تنقشع. إلا أنّه لم يرغب في المزاح بعد، فلعلها تسعى إلى مغامرةٍ جديدةٍ وحسب.

أجابها بصوتٍ أراده متعقلاً، فأتى حذراً: «أنت لا تنزفين يا ميمي».

رفعت يدها إلى رأسها، ثم هزّت كتفيها لامبالاةً: «يبدو أنني أتعلّم من أخطائي».

ابتسمت، فأشرق قلبه بشعورٍ غريب. ترى، هل يجرؤ ويأمل أن الأمر لا يقتصر على مرحلة قبل مغامرةٍ أخرى؟.

وما لبثت أن مدّت يدها إليه، وكأنّها تسأله أن يمسك بها: «ولكني حطّمت مركبك، ولا يمكنني أن أبحر بزورقي وهو على هذه الحال. أعتقد أنّه عليّ أن أعمل لحسابك مجدّداً يا دكتور».

ومن غير أن يفكّر، رفعها إليه، حتّى أصبحت على متن مركبه. حين حطّت إلى جانبه، اختلّ توازنها ووقعت بين يديه، فطوّقت خصره بذراعيها،

ورفعت إليه ناظريها، قائلة: «يا لطيشي! كم أنا آسفة!».

لمّا لم يعرف ماذا يفعل، اكتفى بالتّحديق فيها. بعد برهةٍ، اعتدلت في وقفتها، وابتعدت عنه لخطوةٍ.

ـ ما قولك؟.

ـ ما قولي في ماذا؟.

ترى، هل أصيب رأسه هو هذه المرّة؟ أشاحت بوجهها، وأخذت نفساً عميقاً، قبل أن تواجهه مجدّداً:

ـ ما قولك في أن أعمل لحسابك حتى أدفع ثمن الأضرار؟.

مرر أنامله في شعره، وهو يحسّ أنه فقد القدرة على التركيز: «لقد وظّفت ممرّضاً يا ميمي».

هزّت كتفيها استخفافاً، وحدّقت فيه وقد عقدت حاجبيها قليلاً: «إذاً، كيف تقترح أن أسدّد ثمن الأضرار يا دكتور؟».

لاحظ سلسلةً تتلألأ حول عنقها، وحجرة الزمرد التي منحها إيّاها تتدلّى منها. فرفع السلسلة بيده، وقال: «هذه تفي بالغرض».

هزّت رأسها، وعيناها لا تفارقان عينيه، ثم قالت: «آسفة! لا أستطيع أن أتخلّى عنها، فهي تذكّرني برجلٍ عرفته يوماً».

أثارت نبرة صوتها فيه ارتباكاً واضحاً، وفجأةً سمع نفسه يقول: «هو رجل أعجبك؟».

ـ لا!.

ابتسمت بوقاحةٍ، فتخبط قلبه بين أضلعه، ثم سمعها تجيب: «بل رجل أحببته».

حرمه كلامها كلّ قدرةٍ على التّعبير. وتدفق فيه شعورٌ بالغيرة. ولم يملك إلاّ أن يرمقها وقد أخذ الذهول منه مأخذاً عظيماً.

ساد صمتٌ طويل. فابتلعت ميمي ريقها. بعدئذٍ، وكأنها قرّرت المضي في كلامها: «إنه طبيبٌ محافظٌ، فيما أنا رحّالة. كان من الطبيعي ألا تنجح

علاقتنا».

راقبها بوجهٍ علاه التّقطيب. أي لعبةٍ تلعب؟ هل تخطّط لدفعه إلى الجنون لتتسلّى لا غير؟.

سألته: «أليس لديك ما تقوله؟».

نظر إليها بحذرٍ. يا لتلك السّلطة المدمرة التي تتحكم فيها بقلبه! أيريد فعلاً أن يتسبب بالمزيد من الأضرار؟ سألها، بنبرةٍ يخالطها الشّك: «مثل ماذا؟».

صرخت وهي تشدّ على يديه: «مثل أنّك تريدني أن أبقى أيّها الغبيّ! مثل أنك كنت تعيساً من دوني، وأنّك تحبّني أيها الأحمق!».

أحسّ أن كلّ ما فيه بات صامتاً عاجزاً عن الحركة. لقد أمضى اللّيالي يتقلّب على فراشٍ من الكآبة والأسف. هل يجرؤ ويؤمن أن عذابه قد وصل إلى الختام؟ هل يجرؤ ويجازف بالافصاح عن مشاعره، والتّعرض لمزيدٍ من الأذى؟.

قال في سره: بحقّ السماء، بلى يا رجل. هل تريد أن تتابع حياتك كطيفٍ بشري؟ هل تريد ميمي؟ تباً، إنها هنا! فقل شيئاً الآن، حتّى وإن كانت تمارس معك لعبةً سخيفة، وإلا ندمت على ذلك طيلة حياتك.

تمتم برزانة: «حسناً. أريدك أن تبقي يا ميمي، لقد كنت تعيساً من دونك، وأنا أحبك، أكثر من حياتي».

في هذه اللّحظة، باتت هي أسيرة الذهول، ثم تساءلت وقد اتّسعت عيناها: «أنت... أنت تحبّني؟».

رأى دموعاً تترقرق في عينيها، وارتجافاً في شفتها السفلى. وفجأةً، أدرك أن وقاحتها لم تكن إلاّ قناعاً. لم تكن واثقةً من نفسها كما أرادته أن يظن. رأى العبرات تتجمع في عينيها، وتنساب برقّة على خدّيها، فاجتاحته سعادةٌ غامرة حتّى سرت فيه قشعريرةٌ غريبة. لم يكن يعرف أن مثل هذه الأحاسيس العميقة يمكن أن تولد في قلب إنسانٍ. أخيراً، تمكّن من الابتسام

مجدّداً:

ـ بالطبع أحبك. . . أيتها الحمقاء الصّغيرة.

مسحت بيدها دمعةً منسابة وتمتمت: «حسناً، وماذا ستفعل في هذا الصّدد؟».

شعر بوخزٍ في قلبه، ثم سألها: «ماذا يمكنني أن أفعل، إن كنت تكتفين بالمرور من هنا، وتحطيم المراكب؟».

سألته بصوتٍ مرتجف: «ماذا لو لم أكن مكتفية بالمرور؟».

طرفت عينيها، فانسكبت دموعها. . . ثمّ أضافت: «ماذا ستقول حينها؟».

وقفت على قدميها، وهمست: «كنت أنانيةً، فعجزت عن رؤية الحقيقة، فيما هي ماثلةٌ أمامي. بعد أن تركتك، أدركت أن السّفر حول العالم ليس الحلم الذي أنشده، بل كنت أتوق إلى الانتماء لعائلةٍ محبةٍ».

خاف أن يتحرّك، فيتلاشى الحلم، كما سبق وتجسّد، بسرعةٍ وغرابة.

ـ حين عشت معك ومع عائلتك، بدت لي أمنيتي قريبة المنال، غير أنني لم أسمح لنفسي بالاعتراف بذلك، إلاّ عندما. . .

سكتت فجأةً، وقد تملكها الاضطراب. تأملت وجهه، بابتسامةٍ مرتعشة وكأنها وجدت فيه سحراً بحثت عنه طويلاً. وإذا بمشاعر رقيقة تجتاح عينيها، وتملأ صوتها بحلاوةٍ غير اعتيادية.

فما كان منه إلا أن جذبها إلى ذراعيه، وضمها إليه.

تمتم: «يا ميمي. . . أريدك أن تصبحي زوجتي».

كان عناقه قصيراً، إنّما حافلٌ بوعودٍ مثيرة ينوي الإيفاء بها.

ـ هل تتزوجيني؟

كانت تطوّقه بذراعيها. فلمّا تكلّم، دنت منه أكثر، ثم أحنت رأسها وهي تبتسم لعينيه. مازحته، وأناملها تتراقص حول عنقه، دافعةً إياه إلى جنونٍ عاصف: «لا يمكنني أن أتزوج وأنا أدين لك. . . كيف تريدني أن

أسدّد لك ثمن الأضرار التي لحقت بمركبك؟».

أطلق ضحكةً من قلبه، وأجلسها على مقعدٍ خشبي، وهو يحذّرها بابتسامةٍ: «يستحسن أن يكون هذا ردّاً بالإيجاب».

أطلقت تنهيدةً عميقة، وتمتمت: «نعم. . . نعم يا مارك. . . ما أجمل أن يعود المرء إلى بيته!».

ثم أحاطت وجهه بيديها، وأردفت: «حبيبي. . . سيكون حبك سلسلةً من الاكتشافات الجميلة طالما أننا معاً ولا نفترق».

ما إن قرأ الحقيقة في عينيها، حتى أحسّ أنه يتجرّع من كأس السّعادة حتى الثمالة. وإذا بمشاعره تشتعل بعاطفةٍ مجنونةٍ جديدة عرف أنها لن تخبو أبداً. ضمّ المرأة التي يحبّها إليه، وأحسّ بالأمان في أعماق روحه. لقد وصلت ميمي إلى بيتها أخيراً، وبلغ هو حبّه المنشود.

* * *